٨٥

روايات احلام

لن يعود الحب

www.liilas.com (doode al 7aloo)

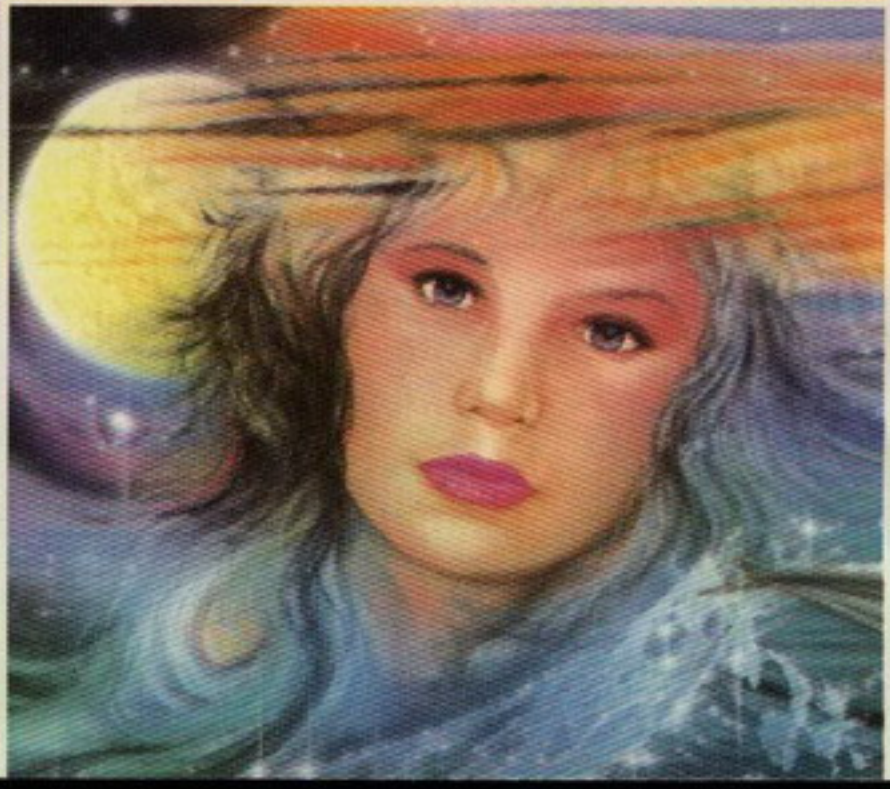

www.liilas.com
(doode al 7aloo)

لن يعود الموج

للناس فيما يعشقون مذاهب، وحبيب قلب شينان كان دلفيناً أبيض يسبح بدلال على سواحل اليونان الدافئة.

من أجل إنقاذه، رمت بنفسها من فوق الصخور الشاهقة. ومن أجله كانت مستعدة لمحاربة كل العالم. بمن فيهم ابن عمها الرهيب فانس أورميروس؟ نعم، فقد انضم فانس إلى صفوف الأعداء من أجل الجميلة جويس، وهو مصمم على إخضاع شينان بالقوة وإبعادها عن صديقها باولو، لكنها لن تتردد في الوقوف ضده ولو خسرت المعركة مع مشاعرها.

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١,٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

روايات احلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة
والنشر والتوزيع ش.م.م.
ص.ب: ٨٢٥٤/١١ ـ بيروت ـ لبنان.

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس والتأليف محفوظة للشركة.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

تنفيذ وطباعة مؤسسة دلتا للطباعة والنشر
حارة حريك ت: ٨٢٣١١٨ - ٠٣/٢٨٧١٥٨

١ ـ حبيبي دلفين!

ضاقت عينا شينان بسبب انعكاس أشعة الشمس فوق صفحة المياه. كانت ترى عن قمة الصخور فوق القرية مسافة أبعد بكثير مما تستطيعه فيما لو كانت على رصيف الميناء.. أخذت تراقب قارب باولو الصغير الخارج من الميناء في الأسفل، تاركاً وراءه ذيلاً طويلاً من الزبد الأبيض.

امتد بحر إيجة بعيداً بشكل لا متناهي وانتشرت فوق صفحته جزر صغيرة تومض كالجواهر. لو استطاع بصر شينان الابتعاد أكثر، لرأت على بعد ما يقل عن ثلاثمئة كيلومتر من المياه البراقة تركيا وجزراً أخرى ومزيداً من الساحل الإغريقي.

كانت في هذه اللحظات أشد اهتماماً بمراقبة الدلفين الأبيض اللعوب الذي كان يسبح مع أترابه تحت سطح المياه. كانت بين الفينة والأخرى إحدى هذه المخلوقات تقفز فوق المياه، محنية الجسد على شكل قوس مرسلة وابلاً من المياه في عودتها إلى المياه تاركة وراءها خطاً طويلاً من الزبد الأبيض فوق صفحة البحر اللازوردي... كان يسهل تمييز الدلفين الأبيض الذي يدعوه أهل قرية بارستيوس «توأسبرو إينا» من بقية الدلافين، حتى مسافة بعيدة.

شاهدت قارب باولو يشق طريقه بجهد أخرق وراء الدلافين اللعوبة. حينما رأته ينظر إليها، إلى حيث تقف وراءها الصخور

والأشجار وجبل «إيزتشيا» الضخم رفعت يدها تحييه.

شاهد حركتها فرد عليها تحيتها. تمنت لو أنها معه، فهي تحب اليونان، وتحب بارستيوس بشكل خاص.. كانت القرية الصغيرة، هاجعة بعيداً على الساحل الجميل ولكنها طالما تمنت لو تتفق مع ڤانس أورميروس، كما تتفق مع باولو، أو لو يبدي ڤانس تجاهها ربع الود الذي يظهره لها باولو.

كانت ظروف حياتهما مختلفة كل الاختلاف فليس هناك من تناقض أكثر مما هو بين عيشة ڤانس المترفة في الفيلا الضخمة البيضاء القابعة فوق المرتفعات الصخرية وبين عيشة باولو في أحد أكواخ الصيادين الصغيرة على الميناء.. في الواقع، كان إصرارها على مصادقة باولو السبب في سخط ڤانس الذي وقع كالصاعقة على رأسها، فهو يرى أن علاقة القربى التي تجمع شينان بعائلته توجب عليها الالتزام بمركزها. تُعتبر عائلة أورميروس أهم عائلة في المنطقة، هذا إذا كان الثراء يُعد من الأهميات.. وطالما تساءلت شينان عن سبب اختيارهم السكن في قرية صغيرة غير ذات أهمية، رغم ثرائهم.

كان باولو ساليس صياداً بسيطاً من القرية، لذلك فهو يُعتبر رفيقاً غير مناسب لفتاة تنتمي إلى عائلة أورميروس الثرية، وليس هذا فحسب بل إن هذه الصداقة الغريبة شاذة عن أخلاقهم الرسمية.

ليست شينان بتعسة أبداً مع أقاربها اليونانيين اللطفاء والكرماء معها منذ وفاة أبيها، ولكنهم وبكل بساطة لا يفهمون طريقة تفكيرها، خاصة بالنسبة لباولو. وكانت آسفة لأنها خرقت تقاليدهم، ولكن هذا الأسف لم يغيّر مسألة تحديها لهم.

جاءت إلى اليونان لتكون تحت رعاية آل أورميروس وهي في الثانية عشرة من عمرها.

كانت القربى التي تجمعها بهم معقدة بطريقة ما فقد جاءت إلى هذه البلاد بناء على دعوة من عمتها لاورا، والدة ڤانس التي كانت متزوجة من ابن عم ثان، وهكذا كانت شينان قريبة لڤانس من الجهتين، من الأب والأم.

كانت قد أمضت ثلاث سنوات في اليونان قبل عودتها إلى انكلترا لتنهي تعليمها، ولكن نظرتها إلى الحياة ظلت محض إنكليزية ولعل ذلك برز بشكل واضح بالنسبة لاستقلاليتها. إنها تحب اليونان واليونانيين ولكنها تجد التشدد والتزمت في التصرفات أمراً أكبر من طاقتها، كان الخلاف على هذه النقطة بالذات هو الطاغي والغالب بينها وبين ڤانس.

في الواقع، لم يكن فيها من الدم اليوناني إلا القليل فالرابط الأهم الذي يجمعها باليونان جدتها لأمها سليلة عائلة أورميروس أما سيماء وجهها فتنكر عليها أقل صلة باليونانيين.. كان شعرها كستنائياً كثيفاً يسترسل حتى كتفيها محيطاً بوجه بيضاوي وبعينين زرقاوين نجلاوين وبثغر مكتنز. أما بشرتها فلم يكن من الممكن إطلاقاً أن تصبح سمراء ذهبية بنية قاتمة، كأبناء عمها اليونانيين، ولكن في السنتين اللتين عادت فيهما إلى القرية، أصبحت بشرتها ذهبية شاحبة أبرزت جمال شعرها وعينيها.

التقت بباولو للمرة الأولى عندما كانت في الثانية عشرة طفلة صغيرة شديدة الميل إلى البكاء. يومذاك بدا لها متفهماً يتمها ربما لأنه فقد أباه منذ خمس سنوات في حادثة بحرية، فوقع على كاهله مسؤولية أمه وإخوته الثلاثة.. كان بهي الطلعة.. وهذا واقع لا يمكنها إنكاره أبداً.

حذرها ڤانس أوميروس من مصادقة باولو بشكل علني، فقالت له وإن بتسرع إن لا شأن له في ما يتعلق بصداقاتها. ولم يرد، بل نظر

إليها، بعينيه الثقيلتي الأجفان وارتد وكأنه يتقبل ردها. منذ ذلك الوقت، راحت لاورا أوميروس تحذرها من هذه العلاقة وتقول لها إنها ستكون في غاية الغباء إن استمرت على ما هي عليه، وقالت لها إن باولو قد يرغب في الزواج بامرأة من مستواه لذا عليها ألا تجعل من المستحيل عليه أن يجد مثل هذه الزوجة.. لكن شينان لم تأخذ تحذيرات السيدة العجوز على محمل الجد وكذلك تحذيرات ڤانس صاحب التأثير الغريب فيها.

كان يبعث فيها التوتر والغضب دائماً فهو عنيد وكأنه قُدَّ من حجر، لا يمنحها أقل فرصة ولا يقبل منها أي اعتراض. كان يتوقع منها أن تتصرف بانقياد وإذعان كحال شقيقاته اللواتي تزوجن ممن وافقت عليهم العائلة، وهذا أمر مستحيل بالنسبة لها.

ولكنها اهتمت بتحذيرات العمة لاورا اهتماماً جعلها تذكرها أمام باولو الذي لم يردَّ عليها رداً يشير إلى مشاعره تجاه الأمر بل ظلَّ يرفع رأسه مبتسماً كلما حدثته أو تباحثت معه مسألة الدلفين الأبيض، حتى ظنته غير قلق بشأن تأثير صداقتهما على زواجه المرتقب.

كان الدلفين الأبيض ومستقبله مهماً لهما لأن هذا المستقبل بحسب التقاليد مرتبط بمستقبل القرية.. فقد كان في خليج الميناء دلفين أبيض منذ وقت بعيد، يحبه أهل القرية، ويرون فيه بشيراً واستمراراً لازدهارهم.

أعطت أسطورة قديمة ما ميزة خاصة لهذه العلاقة، فقد تزامن صيد وفير من الأسماك مع ظهور الدلفين الأبيض للمرة الأولى ومنذ ذاك الوقت ارتبط وجوده بازدهار القرية ورغدها والجدير بالذكر أن هذا المخلوق كان شعاراً لعائلة أورميروس النبيلة.

دار في الأسابيع الأخيرة أحاديث عن وجود فريق من الأميركيين يقيمون في إحدى الفيلات على بعد كيلومترات قليلة من قرية

بارستيوس.. أهل القرية عادة لا يزعجون أنفسهم بالغرباء على الرغم من ندرة الزائرين في تلك المنطقة. ولكنهم في هذه المرة أظهروا اهتمامهم بهم لأن هؤلاء الغرباء وضعوا أعينهم على الدلفين الأبيض وقد شاع في القرية أن الوافدين الجدد ممثلون لحديقة عامة تحوي حيوانات برّية غريبة، ولديهم خطط لأسر الدلفين الأبيض ولاصطحابه إلى أميركا لعرضه هناك.

لم يقم أحد من القرويين بإعاقة مراقبة الأميركيين وهم يبحرون بمركبهم المذهل الأبيض ملاحقين الدلفين ولكن كانت هناك دائماً عيون حادة تلحق بهم، فكلما انطلق المركب الكبير خرج قارب من قوارب الصيادين.. وكان أهل القرية أكثر تأدباً من إفساد سعادة الزائرين ولكنهم كانوا مستعدين لحراسة رمزهم الثمين أربعاً وعشرين ساعة، إن اقتضت الضرورة ذلك.

علمت شينان أن المركب الأميركي الضخم في مكان قريب والسبب هو خروج باولو الباكر. وضعت يدها تظلل عينيها بحثاً عنه، فأجهزة الإنذار القروية لا تفشل أبداً. فجأة تسللت خطوط المركب الأنيقة بهدوء أمام ناظريها. وانطلق خلف الدلافين المتلاعبة، يسبق قارب باولو الذي كان يقف بينهم وبين هدفهم.

كان على متن المركب ثلاثة أشخاص، باتت تعرفهم شينان. فلقد راقبت المركب من قبل، وشاركت المراقبين من أهل القرية لهفتهم.

رأت المركب يقترب من قارب باولو، ثم شاهدت شينان امرأة طويلة صهباء تلقي عليه تحية.. وهذه حركة تودد جلبت ألوان السخط إلى وجه شينان.. لاحظت أن باولو لامس طرف قبعته فقط متأدباً، وأبقى مركبه قريباً من المركب الكبير قدر المستطاع ولكن لم يكن لديه أمل في البقاء على مقربة منه.

نظرت شينان إلى الزبد الأبيض الذي تتركه الدلافين وراءها وكأنما هذه المخلوقات أدركت نوايا الوافدين الجدد، فغاصت مجدداً بحيث لم تعد تترك وراءها أثراً على صفحة المياه. فتنهدت شينان برضى، وراقبت المركب الأبيض الكبير وهو يمخر عباب الماء حول البقعة نفسها.

ارتدت على عقبيها ترتقي الممر الصخري بخطى ثابتة فاتحة ذراعيها طلباً للتوازن.. لم تكن تعرف ما إذا كانت العائلة على علم بالخطر المحدق بالدلفين الأبيض ووجدت أن عليها أن تخبرهم بالأمر هذا الصباح أو بعد الغداء.

المنزل «إيستشيا» هادىء وساكن يشرف على بحر إيجة الكبير وتحيطه الحدائق والشرفات الفخمة المكسوة بالحصى، وبركة سباحة. كان منزلاً قديماً تظلله أشجار الكستناء الكبيرة.

كانت شرفاته عريضة بحيث تسمح للهواء البارد بالتسلل. عندما يدخل المرء للمرة الأولى يحس بالبرد تقريباً إذ تحافظ الأرض والجدران البيضاء على البرودة.

كان درج عريض ضخم من الرخام يقود إلى غرف نوم في الطابق الأول، وإلى صالون مدام أورميروس الخاص. إن الدخول إلى هذا الجناح الخاص لا يتم إلا بناء على دعوة خاص، ولكن شينان شعرت بدافع ما يحثها على سماع بعض ملاحظات العجوز المتغطرسة.

شعرت بأن المدام أورميروس ستهتم لسماع خبر مغامرة الأميركيين، ولكنها تساءلت هل سيهتم بالخبر ڤانس وإيلانا. نظرت إلى الباب المقفل بتردد ثم هزت رأسها حينما انفتح باب كان بعيداً عنها بعض الشيء.

أرادت التسلل إلى غرفتها قبل أن يراها أحد، فهي غير راغبة في مقابلة ڤانس أو شقيقته في هذا الوقت، ولكنها تأخرت على ذلك.

فقد تقدم إليها بخطواته الرشيقة النافذة الصبر التي تدل بوضوح على السلطة التي تميز كل حركاته، وأحست بأنها تقف مسمرة في مكانها.

ليتها تتحرر من الخوف الذي لا تستطيع السيطرة عليه والذي يتفجر في داخلها والذي يجعلها تجده جذاباً بشكل لا يقاوم.. ولكنها، كانت تحس بالغضب لأنها لا تتمكن من الاقتراب عاطفياً منه ولأن تجاوبها معه يثير توترها.

تعرف أنه ابن عم عمها من بعيد فلا تشابه بينهما فلشينان وجه طفولي جميل ولڤانس أورميروس قسمات سمراء دكناء تدل على وجود دم تركي في عروقه.

فمه صارم وكأنه دائم الاستنكار وفكه عنيد يناسب عينيه السوداوين القاسيتين تحت حاجبين سوداوين دائمي العبوس ولكن لم يكن ڤانس الآن عابساً بل كان ينظر إليها بفضول واستغراب، وكأنه يعرف أنها تحاول تجنبه.

ضاقت عيناه السوداوان على وجهها المتورد ثم ومضت فيهما ابتسامة لم تظهر تماماً، وقال مقترحاً: «هل أنت على عجل؟»

هزت رأسها إيجاباً.

فكرت في الدلفين الأبيض وفي التهديد الذي يمثله المركب الأبيض له، وفكرت أيضاً في إخطاره ولكنها عدلت عن رأيها بسرعة، وقالت:

ـ اعتقدت أنني سأصل إلى الغداء متأخرة ولكن على ما يبدو أن أمامي وقتاً طويلاً.

نظر بسرعة إلى ساعته الذهبية، المحيطة بمعصم أسمر قوي، وهز رأسه:

ـ ما يكفي..

ثم أعاد النظر إلى وجهها المتورد:

ـ سأل عنك يورج.. أين كنت؟

رفعت ذقنها بتحد، لماذا لا يكون صريحاً ويسألها مباشرة أين كانت..

ـ كنت في القرية.

ظهر وميض الغضب المألوف في عينيه، ثم هز رأسه:

ـ تعرفين رأيي بالنسبة لعلاقتك بباولو ساليس ولكن على ما يبدو أن هذا هو سبب مواظبتك على رؤيته!

ـ أنا أواظب على رؤيته لأنه يعجبني!

إن هذا الحديث نموذج عما يدور بينهما في كل مرة ومع أنها تندم دائماً على الشقاق الذي تولده أحاديثهما إلا أنها لن تتوقف عن رؤية باولو حتى ترضيه..

سألها ڤانس ببرود:

ـ ألا تهتمين حتى لو كانت سمعتك على المحك بسبب عنادك؟

هزت رأسها، لقد يئست من إفهامه الوضع من وجهة نظرها:

ـ لا تشوب سمعتي شائبة ڤانس.. أنا لم ولن أفعل ما أخجل منه، وما فعل باولو شيئاً.. كان صديقاً طيباً معي في الماضي وآمل أن يظل صديقاً!

ـ صديقاً؟

بدا وجهه الأسمر غاضباً غضباً شديداً شعرت معه شينان برجفة في أعماقها.

ـ كيف تفكرين في أن مثل هذه الصداقة ممكنة، أيتها الغبية الصغيرة؟ ألا تدركين ماذا تفعلين؟

ردت بإصرار ووجهها يحترق غضباً.

ـ يعجبني وأعجبه! إن مصادقته أسهل بكثير من مصادقتك!

ارتدت لتدخل إلى غرفتها، لكنه كان أسرع منها. التفت يده على ذراعها، وأعادها لتواجهه. كانت عيناه تومضان كجمرتين حمراوين. قال بصوت قاس صريح:

ـ لن تري باولو ساليس أبداً! أحرّم عليك رؤيته.

كادت تبكي ولكنها كانت دموع غضب أكثر منها دموع خوف. انتزعت ذراعها منه وهي تنظر إليه بعينين زرقاوين لامعتين، وقالت بصوت مرتجف بالغضب:

ـ لن أسمح لك أن تملي علي إرادتك ڤانس! أنا أختار أصدقائي الذين لن تمنعني أنت من رؤيتهم.

كانت الكلمات التي تمتمها باليونانية متنفساً لما يشعر به، وأحست شينان بارتجاف داخلي ملؤه الشكوك وهي تنظر بسرعة ولهفة إلى وجهه وهو يقول، وعيناه تبرقان:

ـ بمقدوري إقفال باب غرفتك عليك إن لم تنفذي أوامري... تذكري هذا!

حدقت شينان إليه وهي لا تصدق ما تسمعه.. لم يسبق أن عبّر عما في نفسه بهذه الشراسة، ولم يكن لديها فكرة إلى أي مدى هو جاد في تهديده.. قالت تتحداه مقطوعة الأنفاس:

ـ لن تجرؤ! لا يحق لك أن تحبسني في أي مكان ڤانس..

ـ إن عيشك تحت سقف هذا المنزل يجعلك خاضعة لقوانين وكوابح الفتاة اليونانية.. وإن وجدت أن من مصلحتك إقفال باب غرفتك عليك فسأقفله.

ـ لا! سأترك اليونان قبل أن تسجنني كمجرمة! لن تقدر أبداً على إخضاعي لظلمك واستبدادك ڤانس.. لست مسؤولاً عني!

رد ببرود «سأكون ما دمت تعيشين تحت سقف منزلي مسؤولاً عنك.. لقد كنت عنيدة وقد أطلقت العنان لأهوائك فترة طويلة..

وها قد آن الأوان لإجبارك على التصرف كما يجب عليك!»

اشتدت يده على ذراعها مجدداً، وبدا واضحاً لها أنه ينوي ما سيفعله، فشهقت.. نظرت نظرة واحدة إلى هذا الوجه العنيد، ثم سحبت يدها من قبضته وقفلت راجعة إلى الردهة بمقدار من أوتيت من سرعة.

ـ شينان!

تبعها صوته الغاضب ولكنها لم تتوقف فڤانس في غضبه قادر على القيام بأي شيء وهي ترفض البقاء في غرفتها وكأنها ولد شرير. ولكن ماذا ستفعل عندما تضطر إلى العودة؟

كادت تصطدم بإحدى الخادمات التي وقفت مشدوهة، فاغرة فاها لا تصدق ما ترى، وأكملت شينان فرارها إلى الباب وفتحته.

ـ شينان!

ناداها مرة أخرى صوت ڤانس عن الدرج، فنظرت إلى الخلف بسرعة قبل أن تتابع فرارها إلى الخارج، إلى الممر الصخري الذي سلكته في وقت سابق.

ظنت أنه لن يلحق بها فخففت خطاها ثم ما لبثت أن استندت إلى الصخور لتلتقط أنفاسها. كان وجهها أحمر من الإجهاد وقلبها خافقاً بشراسة بين ضلوعها فتساءلت عما إذا كان ركضها هو سبب انقطاع أنفاسها، أم تفكيرها في ما سيحصل الآن بعدما تحدث ڤانس بصراحة في ما هو مصمم عليه.

يستطيع أن يرفض بقاؤها فرداً من أفراد العائلة مع أنها لا تظنه يقدم على ذلك. ولكن لو فعل لكانت هي الخاسرة فهي سعيدة بين أفراد هذه العائلة التي يحبها أفرادها وما تسلط ڤانس إلا دليل واضح على اهتمامه بصالحها مع أنها ترفض السماح له بأن يدير حياتها مهما كلفها الأمر.

نشدت الراحة للحظات طويلة، ثم تنهدت تنهيدة عميقة قبل أن تبتعد عن الصخرة. لم تفكر في الغداء عندما تركت الفيلا بتهور وها هي تشعر الآن بالجوع.

دست يديها في جيبي فستانها، وطفقت تنزل الممر المنخفض نحو القرية، كان البحر المتألق إلى يسارها والشمس المشرقة إلى يمينها. ستخسر الكثير إن أغضبت ڤانس إلى درجة تدفعه إلى غسل يديه منها وإعادتها إلى انكلترا.

انتفضت مذعورة بسبب وجود شخص جالس في عرض الممر، تخبئه الأعشاب والأشواك الخضراء. كان صغيراً أسود العينين، وكأنه دمية جميلة سمراء. وعرفته شينان، فابتسمت له، ثم قعدت قربه تسند ظهرها إلى الصخرة الحارة.

ـ بانيوتي.. ماذا تفعل هنا؟

الصبي هو أصغر أشقاء باولو، وقرّة عين أمه الأرملة.. وبقاؤه وحيداً فوق الصخور أمر غير عادي لأنه يكون عادة مع إخوته الكبار.. بانيوتي في الثانية عشرة وهو الوحيد بين أخوة باولو الذي ينظر بعين السخط إلى صداقتها مع أخيه.. وتصرفه هذا يذكرها بڤانس.

رفع عينيه السوداوين الكبيرتين وقال لها بإنكليزية ركيكة بعض الشيء:

ـ إنني أراقب.. يجب أن أرى متى يأتي «الأميركان»!

كان معه قطعة كبيرة من خبز الذرة الأسمر في صرة قماش إلى جانبه، وقطعة كبيرة مماثلة من جبن الماعز..

وأحست شينان بمعدتها تتضور لقطعة منها. يبدو أن تعابير وجهها فضحت حاجتها، لأنه نظر إليها باستغراب لحظة قبل أن يقدم إليها قطعة الخبز الأسمر.

ـ بوبوتا؟ جائعة؟

ولم تستطع منع نفسها من هز رأسها، مع أنها تعرف أن جوعها الظاهر غريب عليه. وسألته:

ـ هل لك أن تقدّم لي قطعة صغيرة؟ لقد فاتني الغداء اليوم وأحس بالجوع.

قدّم إليها الخبز بدون التفوه بكلمة، ثم قطعة سخية من الجبن التي تتصاعد منها رائحة خليب الماعز، لكنها تبدو شهية..

سألها بأدب: «أركيتا.. ذيسبناس؟ أتكفيك؟»

هزت رأسها: «بل هي كبيرة، أشكرك بانيوتي».

أكلت الطعام بنهم ظاهر. كانت تحس بالارتباك مع بانيوتي أكثر مما تشعر به مع أخيه في الموقف نفسه لأنها لم تكن معتادة عليه.. لكنه على أي حال رفيق مريح ولا يتكلم حين تريد الصمت والتفكير.

ـ أنت تنتظرين باولو.. ذيسبناس؟ صحيح؟

طرح سؤاله بنضج وجدّ.

هزت رأسها، واكتست قسماتها الجد الذي ظهر على قسماته.

ـ لا.. لقد خرجت فقط...

ثم لاذت إلى الصمت وهي تعض على شفتها ذلك أنها أدركت فجأة أن بانيوتي أصغر من أن يتقبل مثل هذه الأسرار التي في رأسها.. كان باولو سيتفهم مشكلتها أما بانيوتي الأصغر سناً من أخيه فهو يوناني حتى العظم، وسيفهم وجهة نظر ڤانس على أنها صحيحة ومنطقية.

لم يبتسم وجهه الجميل الشبيه بوجه الدمى ولكن عينيه فضحتا معرفة لا يملكها عادة من هو في مثل سنه، وقال ببرود:

ـ هربت من كيريوس أورميروس؟

رفرفت شينان عينيها أمامه بارتباك، ثم هزت رأسها مبتسمة:

ـ لم أهرب.. بل أنا.. نحن تخاصمنا و.. خرجت.

أطرق بانيوتي، وكأنه يعرف بالضبط ما جرى وسألها:

ـ أترغبين في رؤية باولو؟

لم يخطر ببالها، وهي تركض هاربة من المنزل أنها تتعمد المجيء إلى باولو ولكنها افترضت أن هذا ما كان في تفكيرها اللاواعي.

ـ لم أخرج بحثاً عنه.

ـ آه!

ـ أليس في المنزل؟

هز بانيوتي رأسه نفياً: «لقد ذهب إلى «ليفكينس»».

توقع أن تجد شيئاً مميزاً في هذه المعلومات..

ـ ليفكينس؟

قال باتزان: «مهم جداً».

كانت قد بدأت بالسؤال عن سبب أهمية الأمر عندما شاهدت ڤانس قادماً فوق الممر الصخري باتجاه القرية. هبت على قدميها بسرعة متوردة الخدين خافقة القلب، منتظرة اقترابه.

عندما رآها متوترة التفت بانيوتي ناحية الرجل الطويل المتقدم بسرعة نحوهما.. ثم نظر إليها متسائلاً، يقول بلهجة الأمر الواقع:

ـ يبدو كيريوس غاضباً.. سيضربك على فرارك.

أذهلها قبوله البارد للفكرة، ونظرت إليه وهو يقف، يجمع قطعة القماش التي تحمل غداءه.. نظر مرة أخرى نحو ڤانس الذي أصبح قريباً، وأحنى رأسه بوقار وهو يتجاوزها، قائلاً بأدب:

ـ هيرتي، ذيسبينس. (سلاماً آنسة).

وأخذ يقطع الممر نزولاً باتجاه القرية.

انتظرت شينان انضمام ڤانس إليها، متمنية لو تحس بالثقة بنفسها. عندما أصبح على مقربة منها نظرت إلى وجهه فإذا هو ويا للدهشة خالياً من علامات الغضب التي كانت مرتسمة عليه سابقاً.

استندت إلى الصخرة وراءها، وتعمدت النظر إلى البحر، بدلاً من النظر إليه.. لم يبد عليه التعب أو انقطاع الأنفاس كحالها في ما لو قطعت المسافة ذاتها، ولكنه على أي حال لم يكن منفعلاً أو راكضاً. وقف لحظة ينظر إلى بانيوتي وهو ينسحب، ثم عبس في وجهها مستغرباً ولكنه لم يقل شيئاً.. فنظرت إلى ما وراءه خافقة القلب، مقطوعة الأنفاس ثم رفعت ذقنها حين أدارت وجهها إلى ڤانس قائلة:

ـ رأيت بأم عينك أنني كنت أكلم بانيوتي لا باولو.

ضاقت عينا ڤانس، وسأل ببرود:

ـ هل أنت مستعدة للعودة إلى المنزل؟

ترددت شينان. كانت تريد العودة معه فقد جعلها سعيه وراءها تشعر بالرضى.. فليس من عادة ڤانس أن يتجشم مثل هذه المتاعب، ولكن يكفيها الآن أنه هنا. رفعت بصرها إليه تظهر تبجحاً بالشجاعة.. وقالت بصوت ثابت:

ـ بالطبع أريد العودة.. ولكنني.. لن أسمح لك بسجني في غرفتي ڤانس بسبب عصياني لأوامرك.

ـ إذن، تنوين الاستمرار في عصياني؟

أسرت عيناه عينيها بثبات، فصعب عليها أن تظل على عنادها.

ـ إن كنت ستسألني عما إذا كنت مثابرة على رؤية باولو بالطبع سأراه.. لا أستطيع ترك صديق طيب هكذا بلا سبب.

نظر إليها ڤانس وعيناه عميقتان لا يمكن سبر غورهما..

قال بهدوء: «اشرحي له إذن».

ـ أشرح له أنه أصبح فجأة غير مناسب لأتكلم معه؟ هل تقدم على ذلك مع شخص تعرفه منذ مدة بعيدة ڤانس؟ أنا لا أستطيع.

لم يقل شيئاً عدة لحظات فراقبته عينا شينان الزرقاوان الملهوفتان. ثم رفع رأسه ينظر إليها مجدداً، وفي عينيه لطف غريب، لم يدهشها فحسب، بل أطلق عنان قلبها مجدداً. خفت قسوة فمه وكأنه يفهم مشاعرها، ويتعاطف معها.. لكن كل هذا لم يشكل أي اختلاف في رأيه.

قال لها بصوته الهادىء العميق:

ـ ستضطرين عاجلاً أم آجلاً شينان إلى الاعتراف بضرورة إيقاف هذه العلاقة أما في الوقت الراهن سأتسامح، ما دمت ترين أنها علاقة لا بدَّ منها.

لم تكن هذه الليونة متوقعة، فأحست بالرضى وهي تنظر إليه.. لكنها بطريقة ما لم تستطع ترك الأمر على حاله، فقالت:

ـ لا أستطيع الموافقة على أنها علاقة لا بد منها.. فصداقته تعني لي الكثير.. ولكن..

قاطعها: «يبدو لي أن سمعتك لا تعني لك شيئاً!»

التفت أصابعه حول ذراعها يديرها إليه:

ـ ما دام الأمر كما تقولين فلا أظنني قادراً على أن أعدك بألا أقفل عليك باب غرفتك.

ـ لكنك..

صاح بها بصراحة: «كفى».

قادها عبر الممر صعوداً إلى الفيلا وأصابعه تضغط على ذراعها، مما لم يترك في نفسها شكاً في أنه يعني ما قال. وكانت شينان صامتة، لكنها كانت من الداخل ترغي وتزبد بسبب ضعفها وعدم قدرتها على الثبات في موقفها.

إنها قادرة على أن تتحداه، ولها الحق في ذلك ولكنها ستخسر الكثير، ولديها أسباب عدة تدفعها إلى إرضاء ڤانس وعائلته. ستتركه في هذه اللحظات يعتقد أن له الكلمة الأخيرة في الموضوع ولكن سيثبت له الزمن وتصميمها خطأه.

من الطبيعي أن يحتل ڤانس المقعد الرئيسي على المائدة، ومن ينظر إليه لا يشك لحظة في أنه رب هذا البيت.

نظرت شينان إليه سرّاً من تحت أهدابها. لم تر على وجهه الغضب الذي أزعجها كثيراً وقت الغداء فشعرت بالراحة فهي تريد الجو هادئاً حتى تأتي على ذكر الدلفين الأبيض.

كانت إيلانا كعادتها تصب اهتمامها على ابنها يورجيو غير عابئة بالآخرين. كانت شينان أحياناً ترى أن تفانيها الأمومي هذا رهيب جداً.

إيلانا سبيروس هي شقيقة ڤانس الأرملة، صغرى بنات المدام أورميروس الأربعة، والوحيدة التي أنجبت حتى الآن ولداً ذكراً. شقيقاتها الثلاثة كلهن متزوجات، وأزواجهن أحياء ولكنهن حتى الآن لم ينجبن سوى البنات، وإيلانا ترى مسألة أمومتها للذكر الوحيد فخر لها لأنه قد يرث ثروة أورميروس.

مات شقيقا ڤانس في حادثة طائرة وهما في ريعان الشباب وذلك بعد وقت قصير من وفاة والدهما.. أما ڤانس فلم يظهر حتى الآن ميلاً للزواج ولبناء عائلة ولهذا لم يكن تفاؤل إيلانا في غير محله.. ما زال يورج في الثامنة من عمره، ولكن قد يصبح شخصاً معتمداً عليه لو ظل ڤانس أعزب.

الولد لطيف وهادىء عكس أقاربه المتسلطين وقد تعلقت به شينان ولكنها لم تستطع التعبير عن ولعها به بسبب حب تملك إيلانا له.

كانت العادة أن يرتدي الجميع ملابس رسمية للعشاء، مع أن عددهم خمسة بمن فيهم يورج. ترى شينان في هذا اللباس تمثيلاً، ولكنها كانت تذعن.. فما يجب أن يكون عشاءً عائلياً بسيطاً يصبح صورة للتكلف والفخامة.

بدا ڤانس خلاباً في بزته الرسمية التي تبرز روعته بوضوح تحت أنوار المصابيح المعلقة فوق الرؤوس.. لقد أضفى النور عليه طلةً غريبة غير حقيقية، وكأنه رسم قديم برونزي يظهره بوضوح بياض قميصه الذي يفضح قسوة وجهه وتصلبه ويبيّنه في الوقت نفسه بعيداً أكثر مما مضى حتى خشيت ألا تعرف يوماً ما يجري وراء هذه الواجهة المهيبة.

ارتدت مدام أورميروس ذات الشعر الرمادي، الأسود، مع أنه مضت سنوات عدة على وفاة زوجها وولديها.

لم يكن أحد سوى شينان يحب ارتداء الملابس الهادئة للعشاء.. فالليلة مثلاً ارتدت إيلانا فستاناً أحمر قاتماً بدت فيه أكبر من عمرها الذي لا يتجاوز الثلاثين وطالما تساءلت شينان عن سبب انعدام اهتمامها بمظهرها فهي غير قبيحة إن لم تكن جميلة وقد تبدو أكثر جاذبية مما هي عليه.

تناقض فستان شينان الأزرق مع ملابس المرأتين المتجهمة. كان بدون أكمام وقد ترك كتفيها عاريتين ولكن الياقة التفت حول عنقها النحيل، ولأول مرة خطر ببالها أن تسأل عما إذا كان أفراد العائلة يوافقون على ذوقها، فلم يعلق حتى الآن أحد على ما ترتديه. ولكن هل كان ڤانس سيترك الأمر بلا تعليق في ما لو رأى ملابسها مبهرجة؟

لم تشعر بانصباب اهتمام ڤانس عليها حتى رفعت بصرها بدافع غريزي لا إرادي فضبطته ينظر إليها، كان يراقبها بفضول واستغراب وكأنه يتساءل عما تفكر فيه فهو عادة يعرف متى تكون منشغلة البال

ولهذا تكرهه.

تلاقت نظراتهما قبل أن تتكلم، لكنها وجهت كلامها للمدام أورميروس:

- بعد ظهر اليوم، كنت أراقب المركب الأبيض الكبير الذي يلاحق الدلافين يا عمتي لاورا.

كانت تناديها عمتي مع أن قرابتهما بعيدة بعض الشيء. نظرت السيدة أورميروس إليها مبتسمة:

- مركب أبيض كبير؟ إنهم زائرون من أحد المنتجعات، ربما..

لكن شينان هزت رأسها بحزم:

- لا.. ليسوا سياحاً بل هم أميركيون مصممون على ملاحقة الدلفين الأبيض.

بدا على العجوز الشك، ولكن عينيها السوداوين أبدتا بعض الفضول، والتفتت إلى ابنها، وكأنها واثقة أنه يعرف كل شيء:

- إذن؟ هناك أميركيون آخرون يقيمون هنا؟

حيّرت كلماتها شينان.. فحسب علمها أن من يلاحق الدلفين الأبيض هم الغرباء الوحيدون في المنطقة، ولم تسمع بغيرهم، سألت الأم:

- أهم أنفسهم.. ڤانس؟ أيهتمون بالدلفين الأبيض «تو أسبيرو إينا»؟

أمر لا يصدق.. لكنها كادت للحظات تقسم أن الانزعاج بادٍ عليه، وكأنه يكره الخوض في هذا الموضوع.. ولكن سرعان ما زال هذا الانطباع، وما هي إلا لحظة حتى كان ينظر إلى أمه، مرفوع الحاجبين ثم لم يلبث أن ألقى نظرة سريعة على شينان قبل أن يرد، بصوته الأجش:

- ليس في القرية سوى جماعة واحدة من الأميركيين. لكنني لم

أكن فضولياً حتى أسأل عن سبب وجودهم ويبدو أن شينان عرفت بذلك قبلي.

لا شك في أنه يسخر منها فتورد وجه شينان، والتفت أصابعها بشدة على شوكتها وهي تنظر إليه وتقول:

- لم يكن عليّ أن أسأل لأن الشائعات بلغتني بدون طرح الأسئلة!

ارتفع حاجبا ڤانس السوداوان وفي هذه المرة علق على مصدر معلومتها:

- عن طريق باولو ساليس؟

ازدادت شينان حنقاً لأنه يظن أن باولو مصدر معلومتها. تمنت لو تستطيع أن تقول له إنه مخطىء..

قالت موافقة: «نعم أخبرني باولو، ولكن ليس وجود هؤلاء الناس هنا بسرّ، فأهل القرية يعرفون! لذا أستغرب عدم تناهي الخبر إليك».

تخلص ڤانس من لقمة دجاج قبل أن يعود إلى الكلام، ونظر إليها بثبات نظرة وجدت صعوبة في تلافيها.

- أظنك كنت تصغين إلى شائعات.

هذا هو رأيه إذن. وسارعت شينان لإنكاره، تقول بثقة:

- ليست بشائعات.. وإن حدث شيء ما ستقع متاعب. أعرف هذا... سأكون مسرورة برؤية هؤلاء الناس يغادرون القرية، فلا تعجبني فكرة وجودهم هنا.

سألها بعد لحظات:

- أتعترضين على جنسيتهم شينان؟ أم أنك ترتابين من جميع الوافدين على القرية؟

- تعرف أن سؤالك سخيف!

لم تحاول إكمال طعامها، ونظرت إليه بعينين براقتين مدافعتين، بدتا أكثر زرقة من عادتهما. لكن ڤانس تابع ببرود، لم يساعدها في السيطرة على نفسها.

ـ أعرف فقط أنك تبدين منزعجة بسبب وجود بعض الزائرين.. لقد التقيت هؤلاء الأميركيين الذين تشكين فيهم، ووجدتهم في غاية الفتنة والأدب.

ملأ كوبه بالعصير أما شينان فكانت تحدق إليه، مرتبكة بسبب هذه المعلومات غير المتوقعة. إنها لا تعرف مدى صلته بالمتطفلين، أو مدى تورطه في مخططاتهم.. أخذت تدرس ملامحه عن كثب للحظات، ثم قالت:

ـ ما دمت قابلتهم فلا بد أنك تعرف سبب وجودهم.

ارتشف ڤانس رشفة أخرى من كوب عصيره، ثم أجاب:

ـ أعرف فقط أن الآنسة جويس غرانت ورفيقها هما عالمان اختصاصهما علم الأحياء. أقترح عليك عدم اتخاذ أحكام مسبقة بحقهما حتى تقابليهما.

أغضبها عدم اهتمامه الواضح، وتمنت لو يهتم بالمسألة كما تهتم هي بها. وضع كوبه، وأخذ شوكته بكل برود حتى شدت قبضتيها حنقاً لأنه يرفض أن يثور على ما ظنت أنه مهتم به.

أخذت تفتش في ذلك الوجه الجريء عن مشاعر حقيقية ولكنها لم تجد شيئاً، فهزت رأسها باستسلام:

ـ لقد شاهدتهم يلاحقون الدلافين في ذلك اليخت الكبير.. ولا أظنني أريد أن أقترب منهم أكثر.

نظر إليها ڤانس بثبات لحظات وعيناه تلاحظان الحرارة والاحمرار على خديها، والتحدي في عينيها، ثم هز رأسه:

ـ لقد اتخذت قرارك سلفاً بشأن هؤلاء القوم، وهذا تصرف غير

راشد.

ـ ڤانس.. أنت تعرف مشاعر القرويين بالنسبة...

أردف ڤانس يقاطعها:

ـ لكنك مشحونة سلفاً بما قاله باولو ساليس.. ولا بد أنه يركز شكوكه على إنصاف الحقائق كحال القرويين وأنا من ظننتك أذكى وأومض فكراً.. شينان!

ـ لا مشكلة في ذكاء باولو! أعرف أنه لا يعجبك، ولكنه يعجبني لذا لن أصغي إليك وأنت تحتقر ذكاءه لا لسبب إلا لأنه أدنى مرتبة منّا ومنك.

هبت للدفاع عن باولو بسرعة، ثم أدركت أنها بدفاعها عنه، ستعطيهم انطباعاً سيئاً، ولكنها أصبحت في تلك اللحظات غير عابئة بآرائهم. رفعت ذقنها في وجهه بتحدٍ لكن ڤانس أنكر بسرعة:

ـ لا أملك هذا التكبر ولكن ما يؤسفني أن تتخذي الأحكام بناء على شائعة لا على معلومات دقيقة. لقد طلبت إليك التريث في الحكم عليهم حتى تلتقيهم.

ردت بإصرار:

ـ أستبعد مقابلتهم فهم لا يجرؤون على الاقتراب من القرية، ولا أقول إنني آسفة على هذا.. أنا لا أرغب في لقائهم اجتماعياً.. فقد أكون فظة إلى حد التطرف فيما لو التقيتهم.

كانت مدام أورميروس على وشك التدخل ولكن ڤانس رفع يده، يؤكد لها أنه مسيطر على الموقف. نظر إلى شينان بعينين ضيقتين وكأنهما قطعتا حجر وقال بلهجة حادة كالسكين:

ـ عليك السيطرة على كراهيتك المتعسفة والتصرف بلياقة مع ضيوفنا، فالآنسة غرانت والسيد فيغرمان مدعوان إلى العشاء عندنا غداً.

نظرت إليه وهي غير راغبة في أن تصدق أنه يعرف سبب وجود هؤلاء القوم، ومع ذلك مستعد لدعوتهم إلى العشاء..

قالت مترددة: لكنك.. لكنك.. لا تعني...

في هذه المرة دل ارتفاع يده على أنه يطلب سكوتها. هزت رأسها بإلحاح، وقال بثبات:

ـ لقد دعوت ضيوفاً للعشاء.. ومن الطبيعي أن تحسني التصرف لأنني لن أتوقع غير هذا منك شينان.

أطرقت رأسها بصمت، وغضت طرفها ولكنها لا تعرف كيف ستشرح الأمر لباولو أو كيف ستبرر دعوة الأميركيين إلى مائدة العائلة. إن هذا قد يُحدث تغييراً كبيراً في علاقتهما لذا تساءلت عما إذا كان ڤانس يدرك هذا أيضاً.

* * *

٢ ـ وجهاً لوجه

فكّر باولو عدة دقائق قبل أن يجيب أما شينان فراقبته بلهفة. أملت أن يفهم أن لا يد لها في دعوة الأميركيين للعشاء في فيلا «إيستيشيا»، فهو سيشعر بأنها خذلته في ما لو فكر في أنها شريكتهم بالفكرة.

وهذا ما دفعها إلى إخباره بأمر الدعوة قبل أن يسمع الخبر من ماريكا غداً. فماريكا ديمتريوس ليست ابنة عمة باولو فقط بل خادمة في منزل عائلة أورميروس وما تعرفه شينان عنها أنها تنقل الشائعات إلى أقاربها وقد أدركت ذلك من خلال ما كان يقوله باولو في بعض الأحيان.

قالت عندما ظل وجه باولو الجميل خالياً من الانفعال:

ـ أما كنت ستعرف عبر ماريكا؟

اعترف بهزة رأس منه، ثم استدار لينظر إليها وفي عينيه ارتباك غريب: «كانت ستخبرني بدون أدنى شك».

ـ ولهذا رغبت في إخبارك بالأمر أولاً فأنا لا أريد أن تظن أن هناك سراً ما.

وقف أمام قاربه «تشيكوي» يلهو بالحبل الذي يربط به بالرصيف.

راحت شينان تتأمل قسماته الوسيمة التي يشبه بها إلهاً من آلهة

www.liilas.com
doode al 7aloo

الإغريق.

لا شك في أن باولو يجذب الفتيات اليونانيات مع أنه يمضي معظم وقته على اليابسة وهو يتحدث إلى شينان. علمت أنها محسودة، لأن التقاليد تمنع الفتيات اليونانيات من الحرية التي تتمتع بها، ولكنها كانت تشاهدهن يبتسمن له وتشاهده يرد لهن الابتسام. ولمَ لا يفعل؟ وهو شاب خالي القلب، غير مرتبط بامرأة.

لكن باولو لم يكن يبتسم الآن.. بل بدا مفكراً وقلقاً. ولهذا سعت إلى تطمينه بالنسبة لدورها في دعوة الأميركيين إلى فيلا «إيستيشيا».. وقالت:

ـ أنا آسفة باولو.. ولكن ليس بيدي حيلة.. فڤانس يعرفهم، وهو من دعاهم لذا لا خيار أمامي إلا أن أكون هناك، صحيح؟

نظر إليها نظرة ذات مغزى:

ـ ولماذا؟ ألا تستطيعين الادعاء بأن لديك ترتيبات أخرى هذا المساء «ذيسبينس»؟

ـ ترتيبات أخرى؟ كأن أدّعي أنني ذاهبة إلى مكان آخر هذا المساء؟ ارتباط آخر؟

بدت الكلمات غير ملائمة، وعرفت أن ادعاءها لن يخدع ڤانس. لكن باولو لم ير في فكرته خطأ، فسأل: «أليس هذا ممكناً؟»

هزت رأسها: «لن يبدو كلامي مقنعاً في هذه المرحلة.. فإن اخترعت هذا العذر عرف ڤانس أنني أتهرب من مقابلة هؤلاء الماكرين».

ـ وأنت لا ترغبين في إغضاب كيريوس أورميروس.. بالطبع!

جلبت سخريته اللون الأحمر إلى وجنتيها فنظرت إليه مؤنبة:

ـ تعلم أن الأمر ليس كما تصف بل السبب هو..

وفتحت يديها بعجز.

ـ أنت لا تفهم باولو! أنا في موقف دقيق جداً!

لم يفهم ما تقصده بهذه الكلمة فعبس قلقاً: «دقيق؟»

وضعت يدها على ذراعه، وهزت رأسها:

ـ يصعب أن أظهر بمظهر المتعجرفة أمام ضيوف ڤانس، فأنا أدين له ولعائلته بالكثير.. لقد استقبلوني، واعتنوا بي باولو.. وهذا يعني أنني لن أستطيع التصرف وكأنني ناكرة الجميل..

لكن منطقها فشل في التأثير في باولو.. إنه يوناني ويعرف واجب احترام الأبوين وكبار السن ولكنه لا يفهم سبب شعور شينان بأنها مدينة للعائلة.. صحيح أنهم اعتنوا بها ولكن هذا واجبهم، فهي فرد من أفراد العائلة.

مرر يداً في شعره الكثيف، وفسّر قولها على أنه عذر. نظر إليها خائب الأمل:

ـ أنت لا تتعاطفين معنا؟ ظننتك حليفتنا، وها أنت توشكين على مجالسة الأميركانوس الذين سيأسرون رمز حظنا السعيد، ويأخذونه بعيداً!

ـ ولكن ألا تفهم أن ليس أمامي خيار آخر؟.. أرجوك باولو افهم موقفي! لا يمكنني إلا أن أكون هناك!

لم يقل باولو شيئاً ولكنه نظر إليها لحظات، ثم ارتدَّ قافزاً إلى قاربه، مشيحاً لها ظهره. كان في حركته تشنج وفي إطراقة رأسه استياء.. شدت شينان قبضتيها بقوة، تحاول عدم البكاء.

تكره أن تخسر ثقة باولو بها وصداقته، وهي مستعدة للقيام بأي شيء لتثبت له أنها تؤازره وتسانده بالنسبة للدلفين الأبيض.. ولكنها أحست بالعجز الكامل في هذه اللحظات.. فقالت:

ـ قد أجد شيئاً.. وقد أعرف ماذا ينوون عمله بالدلفين.

ـ نحن نعرف ماذا ينوونه.

كان في صوته مرارة وخيبة أمل وفهمت مشاعره، ولكن ليس بيدها حيلة سوى الجلوس للعشاء مع ضيوف لا ترحب بهم.

لا بد من إيجاد طريقة تجنبها مقابلة الأميركيين.. لديها أصدقاء في القرية، أصدقاء لا يعترض ڤانس وأمه عليهم. خريستو وكاتالينا تيغروس اللذان يديران مدرسة القرية مثلاً، ولقد زارتهما شينان في مناسبات عديدة ولم يحدث أن تلقت من ڤانس أو أمه اعتراضاً.

ما إن حلت الفكرة في رأسها حتى نادته:

ـ باولو!.. يمكنني زيارة عائلة تيغروس..

لم يأتها الرد فوراً فأردفت:

ـ أنا أكيدة أنني سأتمكن من زيارة خريستو وكاتالينا لساعة هذا المساء.. وبذلك أؤكد وجهة نظري لڤانس.. ومع ذلك لن أبدو أنني تعمدت الفظاظة مع ضيوفه.

أشارت الدلائل في عيني باولو إلى أنه سيقبل.. وابتسمت شينان ارتياحاً.. وقف ينظر إليها لحظات، ثم قفز إلى اليابسة بخطوة واحدة رشيقة، ليقف قربها على الصخرة..

نظر إليها بصمت، ثم ابتسم: «أتستطيعين القيام بذلك؟».

هزت رأسها بثقة: «أجل سأفعل حتى أبرز وجهة نظري أمام ڤانس».

ـ كالو!

عبّر عن استحسانه بصوت ناعم منخفض، أرسل رجفة سريعة حساسة إلى أوصالها فقالت: «لا أدري ماذا سيقول ڤانس».

خاب أملها لأنها لم تجد خريستو وكاتالينا تيغروس.. ولكن أحد الجيران أخبرها بأنهما خرجا منذ الصباح لزيارة بعض الأصدقاء في القرية المجاورة.. يا لسوء الحظ! من ستزور الآن؟

من غير المعقول أن تزور منزل باولو هذا المساء، إذ سيثير

مجيء فتاة وحيدة إلى منزل فيه عدة شبان شكوكاً كثيرة.. خاصة وهي تشاهد كثيراً مع باولو على الميناء.

لا سبيل أمامها إلا أن تضع قناع الطيبة والتهذيب حين تقابل الأميركيين..

قد تكون الأمسية مشحونة بالمآزق، لذا لم تكن متحمسة لها مع أنها تشعر بالفضول تجاه الصهباء ورفيقها..

حارت بين ارتداء فستانها الشوفين العاجي اللون أو فستانها الأزرق وكان أن اختارت الأخير فلم ترغب في أن تغطي عليها حمراء الشعر، من ناحية أخرى.

لم تكن تحب البهرجة ولكنها الليلة شعرت بشيء من التهور لذا أضافت قرطاً متأرجحاً إلى أذنيها، ومشطت شعرها إلى الوراء لتظهر أذنيها وعنقها وبشرتها الذهبية. كانت النتيجة مثيرة غريبة، إذ بدت جذابة بل خلابة.

كان الوقت مبكراً على وصول الضيوف الزوار، لكنها تستطيع تبادل الحديث مع مدام أورميروس قبل موعد العشاء.. كانت تحب العجوز، وتتفق معها.

كان الرواق خارج غرفتها مكسواً بالسجاد ومزيناً بزخرف منمق يخطف الأنفاس..

كان يحتل تمثال دقيق صغير للآلهة افروديت فجوة صغيرة في منتصف الرواق.. ولم تكن شينان تنظر إليه مرة إلا وتشعر بالإعجاب مع أن ذلك يحدث مراراً في اليوم.. كان منمنماً دقيقاً وهو يساوي ثروة.

كانت افروديت، تقف بكل رقة وأناقة، وكان الضوء يرسل ظلالاً ناعمة على وجهها وجسدها الرائعين. ابتسمت شينان لها، كما تفعل دائماً.. مدت يدها تلامس بأصابعها التمثال مأخوذة به ولكنها

أفاقت من نشوتها عندما تكلم شخص من ورائها، فسحبت يدها بسرعة واستدارت مذعورة، تنظر إلى وجه ڤانس الأسمر المستغرب للحظة.

ـ شينان! بروتشيت!

مرّ بها يبعدها ويسارع إلى وضع يديه الكبيرتين على التمثال الصغير بلطف لا يصدق.. لم يقع التمثال، لكنه تحرك إنشاً أو إنشين عن قاعدته حين سحبت يدها بسرعة عنه.. وحبست أنفاسها بحدة بسبب الكارثة التي كانت وشيكة.

أعاده ڤانس إلى مركزه بعناية فائقة، ثم ارتدَّ إليها وعيناه السوداوان تومضان بفضول:

ـ ماذا كنت تفعلين؟

تنهدت شينان بارتباك حين أدركت أنها استحقت مرة أخرى سخطه.

لم تنظر إليه بعد نظرتها الأولى المجفلة، ونظرت إلى افروديت، تتساءل عما إذا كانت الآلهة القديمة ما تزال تسدي الخدمات للبشر..

قالت: «لمستها فقط».

وهز ڤانس رأسه: «ولماذا؟ ألم تدركي أن من السهل إيقاعها أرضاً بملامستك إياها وأنت تمرين بها؟»

اعترفت على مضض: «أعتقد أنني تصرفت بغباء. أكره أن يصيبها شيء لأنني أحب هذا التمثال الصغير».

بدا أن المعلومات أدهشته: «هكذا إذن؟»

تورد وجهها لأنها باعترافها هذا ستعطيه صورة عن رومانسيتها.

نظرت بسرعة واختصار إلى قسمات وجهه القوية القاتمة ثم رفعت ذقنها لا إرادياً بتحد:

ـ هل تراني بلهاء لأنني مولعة بتمثال لا حياة فيه..

ـ لا أحكم على أي إنسان بالسوء لأنه يحبها.. فأنا عبد مخلص لجمالها بنفسي..

ـ أنت؟

هز رأسه: «هل أنت معجبة بجمالها أم بما تمثله؟ من حب وجمال جسدي؟»

طافت عيناه على قدّها النحيل..

مضى السؤال الهامس بلا رد لأن شينان كانت مذهولة به فلم يحدث أن كلمها بهذه الطريقة التي جعلتها تدرك فجأة مدى جاذبيته كرجل.

منذ سنتين تقريباً وهي تحت سقف واحد معه، تشاركه حياته اليومية وبيته وعائلته، مع ذلك، لم تحس من قبل بوجوده بهذه الطريقة التي تشعر بها الآن. صدمها أن تدرك أنه ليس قريبها فحسب، بل رجل ساحر كله رجولة وذو شخصية ليست قوية فقط بل جذابة إلى حد الإذهال.

شتت هذا الواقع تفكيرها ورباطة جأشها للحظات. وأخذت وقتاً طويلاً قبل أن ترد عليه ولكنها عادت فقالت بصوت مرتجف:

ـ أظنها.. جميلة..

ـ إذن ثمة شيء مشترك يجمعنا!

فاجأتها ابتسامته وجعلتها تتساءل لماذا هو على هذه الفتنة هذا المساء. إنه عادة يعاملها وكأنها ليست سوى حمل ثقيل عليه تحمله.. أم كان ذلك وليد خيالها. هل أساءت الحكم عليه حتى الآن.. وهل كان ما اكتشفته الآن من سحره ولطفه موجوداً من قبل؟.

اجتاح عقلها أحاسيس جديدة بعثت الاضطراب والإرباك

والتشوش إلى أفكارها وجعلتها تلوذ إلى الصمت أما ڤانس فكان يراقبها بثبات.. وكأنما أحس بشيء. جالت عيناه مرة أخرى على حنايا جسمها مبدياً الإعجاب بثوبها الأزرق، لكنه عبس حين لاحظ القرط الذهبي.

ـ تبدين جميلة جداً..

وازداد احمرار خديها، فأردف ببرود: «ولكن لا تعجبني هذه الأقراط».

ضمت يديها بقوة ورفعت نظرها إليه وكأنها تؤنبه.

ـ لكنها تعجبني!

ضاقت عيناه فجأة لأنه علم أنها تريد بذلك أن تتحداه.

ـ هكذا إذن! إنها تعجبك!

سرى إحساس غريب في جسمها كله، لكن يقيناً غريباً كان ينتابها بأن ڤانس يحس بما تحس. مد يده يلمس القرط الذهبي بأطراف أصابعه، فارتدت بسرعة.. ثم سحبت نفساً حاداً عندما وقعت يده على عنقها لترسل قشعريرة غير متوقعة أبداً إلى عمودها الفقري..

وقال بهدوء: «إنها تفسد براءة جمالك شينان.. ألن تخلعيها؟»

ـ لأرضيك؟

الله وحده يعرف لماذا قالت هذا.. ولكنها شاهدت عيناه تومضان بدهشة، ثم رفع حاجبه مبتسماً:

ـ وهل هذا عذر كاف بالنسبة لك؟

أشاحت وجهها بسرعة..

ظلت على هذه الحال لحظات ثم ضحكت ومدت يدها لتنزع القرط الذهبي في أذنيها بأصابع مرتجفة.

ـ أحبَّ أن أبدو جسورة وقحة.. آنستك غرانت تهتم كثيراً

بالبهرجة وقد فكرت في منافستها قليلاً.

نظر إليها ڤانس وتقطيبة على وجهه:

ـ أشرت إلى آنستي غرانت.. يبدو أنك واهمة بشأن ضيفتنا التي لا أكن لها اهتماماً خاصاً حتى الآن.

عندما سمعته يقول هذه الكلمات عبست ورفعت بصرها إليه تحاول استكشاف المعنى الكامن وراء نظرته المبهمة..

سألته: «منذ متى وأنت تعرفها؟»

لم تجرؤ من قبل على طرح سؤال شخصي لذا توقعت منه أن يدير لها ظهره ويبتعد.

لكنه لم يتركها بل ظلَّ ينظر إليها بثبات فبدا وجهه أمام قميصه الناصع البياض قاتماً ومظللاً تحت المصابيح..

قال بهدوء:

ـ تقابلنا منذ أسبوع ثم التقيت بعد ذلك بالسيدة مرتين صدفة، ومرة بناء على موعد.

ـ أوه.. هكذا إذن!

اتضح كل شيء فجأة.. وأخذت تفكر بمرارة.. لا شك أن الآنسة جويس غرانت تعرف أن لعائلة أورميروس نفوذاً في المنطقة، وأن ڤانس على رأس هذه العائلة، ويبدو أن تلك الآنسة مهتمة به لسببين: الأول لأنه رجل وسيم والثاني لأنه يعزّز خططها في أمر الدلفين الأبيض..

ـ هكذا إذن.. ماذا.. شينان؟

كان يسألها عن معنى كلامها بطريقة عذبة بصوت خفيض مثير للأعصاب، وهو يقف على مقربة شديدة منها بحيث شعرت برجولته تملأ عليها كيانها.

تحركت بقلق، تهز كتفيها، وتبتعد قليلاً عنه:

ـ لا يهم.. لا يهمني ذوقك ڤانس إنما لا تتوقع مني أن أرحب بهؤلاء.. بهؤلاء.. الغرباء بحماسة كما ترحب أنت بهم.

كان بإمكانها لحظتئذ تركه والتوجه إلى الطابق الأرضي، ليلحق بها حسبما يريد. ولكنه وضع يده على ذراعها والتفت أصابعه القوية بقوة حول بشرتها الناعمة في قبضة منعتها من الذهاب.. رفعت بصرها إليه فرأت الظلمة العميقة التي لا قرار لها في عينيه اللتين بدتا تتحديانها.

ـ ألا تذكرين أنك كنت يوماً غريبة أيضاً شينان؟ ماذا ستفعلين في ما لو استقبلناك ببرودة؟ هل كنت ستحبين اليونان كحالك الآن؟

ـ الأمر مختلف بالنسبة لي.. ففيّ عرق يوناني، كما أنني لا أحاول سرقة ما هو ملك أهالي «بارستيوس» وأسرة أورميروس أيضاً!

أغضبتها ابتسامته وجعلتها تصرّ على معاداة ضيوفه.. فابتسامته تشير إلى أنها تبني جسوراً على ما لا أساس له، وهي تعرف أن الأمور لن تعود كما هي في ما لو اختفى الدلفين الأبيض.

قال ڤانس: «أراك تختلقين مأساة من أمر واضح المعالم.. فلدى الآنسة غرانت وزميلها التراخيص الضرورية لجمع كل ما يريدانه من عينات عن هذه الشواطىء، وليس هناك خرافات قادرة على منعهم كما أن لديهم حماية قانونية لكل ما يفعلونه».

ردت وهي تكاد تبكي في توقها لإقناعه:

ـ منحهما إياها بعض الرجال الرسميين الذين لا يعرفون شيئاً عن التقاليد المحلية! الدلفين الأبيض لا يعني لهم شيئاً ڤانس.. أما أنت فتعرف ما يعنيه للقرية! فكيف تساند هؤلاء الناس؟

نظرت إليه ويداها ترتجفان، ثم أردفت:

ـ أم تراك مهتماً بإرضاء صديقتك الصهباء أكثر من اهتمامك بحماية مواطنيك؟

ومضت عينا ڤانس بلون أصفر كالكهرمان، وقال:

ـ لن أقول شيئاً عن افتراضاتك.. إذ يبدو لي أن اهتمامك حقيقي.. لكن، لا تكلميني بعد اليوم بهذه المسألة أو بمسألة علاقتي المزعومة مع الآنسة غرانت! أتفهمين؟

ـ أفهمك جيداً!

كاد صوتها يختنق في حلقها، ثم اغرورقت الدموع في عينيها فنظرت إليه ببرود.. وفكرت بمرارة في خطتها التي ذهبت أدراج الرياح.

ليتها تجد بديلاً عن خريستو وكاتالينا لتقضي الأمسية معه فذلك أفضل ألف مرة من قضائها مع هذين الضيفين اللذين تعرف يقيناً أنها لا تحبهما خاصة منهما المرأة.

افترضت شينان أن جويس غرانت تخبىء حقيقتها تحت واجهة ساحرة لطيفة. ربما تكون أكبر عمراً مما تبدو لأول وهلة، ربما في الرابعة، أو الخامسة والثلاثين.. لكن بشرتها الناعمة مُعتنى بها بوضوح رغم رحلاتها الدائمة إلى أماكن حارة.

عينا هذه المرأة بنيتان، ثغرها واسع لا ينفك عن الابتسام خاصة أمام ڤانس، وهي مديدة القامة. أما مرافقها فكان أقصر منها قليلاً في الأربعين من العمر. بدا لها عندما كانت تراقبه عن الصخور مغرماً بالصهباء التي لم تكن تدرك ذلك. أعجبت شينان بهذا الرجل على الرغم من تصميمها على كرهه وشعرت بالأسف عليه كذلك لأنه مضطر إلى منافسة ڤانس للحصول على اهتمام المرأة التي يحبها وبرأيها أن ما من رجل يحب أن يواجه مثل هذه المنافسة.

جلست جويس غرانت إلى جانب ڤانس الأيمن، وإيلانا إلى جانبه الأيسر وجلس الصغير يورجيو قرب جدته.. وهذا ما جعل جيرارد فيغرمان يجلس قرب شينان في مواجهة إيلانا، وهذا مركز

يجعله يرى بوضوح كيف يستأسر مضيفهما باهتمام شريكته ولكنه لم يظهر دلائل كراهيته للموقف. ربما لاحظت شينان وحدها كيف كانت عيناه تشردان خاصة عندما تحني جويس رأسها نحو ڤانس باهتمام، ولم تستطع سوى أن تحس بالأسى عليه.

ـ هل تهتمين بتاريخ الطبيعة آنسة شيروود؟

أعادت شينان نفسها بسرعة إلى الواقع، فابتسمت تهز رأسها وترد بحذر:

ـ أهتم بالمحافظة على الحياة الطبيعية سيد فيغرمان.

تفرس فيها لحظات قبل أن يتكلم فلاحظت أن ڤانس يراقبها من مكانه على رأس المائدة. شعرت بأنه يريد منها إبقاء الحديث بعيداً عما يثير الجدال.

قال لها جيرارد فيغرمان: «وهذا ما نفعله بالضبط».

نظرت إليه بريبة: «أجل بالطبع وذلك بأسر المخلوقات البرية وعرضها. أليس كذلك؟»

ـ وهل هناك ما هو أفضل من حماية مخلوق نادر الوجود من غدر أعدائه من المخلوقات الأخرى؟

إنها وجهة نظر لم تفكر فيها من قبل ولكن على الرغم من استحسانها الفكرة لم تغير نظرتها بالنسبة لإبعاد الدلفين الأبيض عن بيئته التي عاش فيها منذ مئات السنين.

قالت وهي لا تريد تباحث هذا الموضوع خشية أن تخوض في ما لن تقدر على إيقافه:

ـ ربما.. لكنني أحب رؤية الكائنات في الأماكن التي تنتمي إليها، لا في مكان ضيق لا يمنحها إلا بعض الحرية.

تابع جيرارد فيغرمان بإصرار: «حتى وإن كان في ذلك انقراضها؟»

بدا مقتنعاً بما يقوله.

ـ إنه اختيار صعب آنسة شيروود.. فإما الحرية أو البقاء.. لا أدري ما الذي أختاره بنفسي لو خُيِّرت بين هذين الأمرين.

نظرت إليها جويس غرانت:

ـ أرى من خلال قولك أنك لا توافقين على عملنا؟

أحست شينان بأن ڤانس سيساندها إن احتاجت إلى الدعم.. وكان الموقف مزعجاً، غير سهل فسارعت للخلاص منه..

ـ أمقت فكرة نزع الدلفين الأبيض من الميناء وأسره في مسبح صغير.. ولا أظنك تدركين أهمية «تو اسبيرو اينا» بالنسبة لأهل بارستيوس آنسة غرانت.

أوضحت جويس غرانت مفسرة بما لا يدع الشك في أنها تعرف اسم المخلوق المحمي:

ـ الأبيض.. أنا أعرف الأسطورة بالطبع.. ولكن هل تأخذينها على محمل الجد؟

نظرت شينان إلى ڤانس سعياً إلى دعمه فتلاقت عيونهما لحظات قبل أن يستدير إلى ضيفته:

ـ يؤمن القرويون يا آنسة غرانت بالأسطورة.

ابتسمت جويس له بذكاء، قبل أن تعيد اهتمامها إلى شينان: «قد يؤمن بها القرويون أما أنت فلا أظنك تؤمنين».

وضحكت ضحكة ساخرة، وترت أعصاب شينان.

أردفت المرأة: لا عيب في خرافات القرويين ولكن لا أحد يصدق فعلاً أن المكان كله سيتداعى إن لم يسبح الدلفين الأبيض في هذه المياه. لا يقول هذا القول الأذكياء من الناس.

أحست شينان بالاحمرار يلوّن وجنتيها وشعرت بأنها باتت عاجزة عن الصمت.

- ليس في القرويين خلل عقلي! إنهم أذكياء مثلك ومثل أي شخص آخر.. ولكن، لديهم معتقداتهم وهي معتقدات أشاركهم أنا بها!

- شينان..!

لم يرفع ڤانس صوته، ولكن التحذير كان واضحاً، فكان أن نظرت إليه بسخط، وقالت بصوت خفيض وبنفس مقطوع.

- آسفة ڤانس.. لدي أصدقاء في القرية، ولا أحب أن أسمع من يحقر شأنهم ويصورهم على أنهم جماعة من الأغبياء. أنت تعرف أن هذا غير صحيح، فباولو وسائر الأهالي، أذكياء مثلك ومثلي!

بدا ڤانس أقل غضباً مما توقعت، مع أن في عينيه وميضاً غريباً.. على أي حال، لم تترك له المجال للرد، فقد أعادت جويس غرانت النظر إليها، رافعة الحاجبين:

- باولو..؟ أهو شخصية جديدة في الأسطورة؟

ترددت شينان في الرد، فسارع ڤانس للكلام، وعيناه السوداوين تراقبانها، وكأنه يكره النقاش برمته.. وقال لضيفته:

- باولو ساليس، أحد الصيادين وهو من أقنع شينان بأن الكارثة واقعة إذا اختفى الدلفين.

- آه.. هه!

نظرت عينا جويس غرانت البنيتان إليها لحظات:

- وهل باولو هذا من كبار رجالات القرية؟ إن كان كذلك فعلي محادثته، فالكبار في السن يثيرون الاهتمام.

لم يرد عليها أحد، ثم قال ڤانس وعيناه مثبتتان على وجه شينان المتورد:

- بالعكس.. إنه شاب وسيم.

ابتسمت جويس ابتسامة عريضة فيها تلميح.

- من الأفضل والحال هذه ألا أراه!

قالت كلماتها تلك ثم التفتت إلى شينان بعينين بارقتين متحديتين وشرعت من جديد في الضحك.. فشدت شينان قبضتيها بقوة فوق السكين والشوكة.. لقد عرفت سلفاً أنها ستكره جويس غرانت.. ولكنها لم تدرك كم ستكرهها!.

* * *

٣ ـ الجمال المكسور

مرّ يومان لم يذكر فيهما أحد موضوع الدلفين الأبيض.. فجأة، وعن غير توقع أثارته السيدة أورميروس.. كانت شينان قلقة مهمومة، فبعد قيامها بزيارات عديدة إلى الميناء ولم تجد فيه أثراً لباولو آمنت بأنه يتعمد تجنبها.

كانوا يأكلون وجبة الفطور عادة في الحديقة التي يحيط بها السكون وبرودة الأشجار. كانت المائدة المستطيلة الشكل، العائلية الحجم، مركزة قرب مسبح تذكرهم كم تضاءل عدد أفراد عائلة أورميروس في السنوات الأخيرة.. فقبل مدة كان سبعة أشقاء وأبويهم، يتشاركون الطعام كل صباح، مع عدة عمات وخالات وأبنائهن، أخذت الأحداث منهم مأخذها، من خلال الموت والزواج، حتى وصل الأمر إلى بقاء ولدين وأمهما. كانت العادة عند اليونانيين أن يزيد الأقارب عدد أفراد العائلة وها هي شينان وحدها التي تمثل فروع العائلة الأخرى.

الطفل الوحيد الموجود هو يورجيو، الذي كان يجلس كعادته صامتاً وقوراً بين أمه وجدته، يصغي إلى حديثهما الهادىء، ومستمتعاً بفطوره.

كان يحمل هواء الصباح المنعش معه رائحة زهر البرتقال والليمون. في هذا الصباح تمنت شينان وهي متوجهة إلى المائدة لو

تكون إيلانا رائعة المزاج. وفي الواقع أن إيلانا لم تمل إليها يوماً، ولعل سبب امتعاضها هو بعد صلة القربى بينها وبين عائلة أورميروس.

لم يكن ڤانس قد ظهر بعد، وأحست بإيلانا تراقب تقدمها وفي عينيها وميض الكره. والتفتت السيدة إليها مبتسمة، وكأنها تجاهد لتخفف من وطأة عداوة إيلانا الظاهرة.. وهكذا تكلمت شينان إلى العجوز أولاً:

ـ كاليميرا عمتي لاورا.

انحنت تطبع قبلة على جبين السيدة العجوز.. ثم استقامت تنظر إلى إيلانا، ملقية عليها التحية:

ـ صباح الخير.

كانت على وشك أن تتكلم إلى يورج ولكن نفاد صبره الطفولي جعله ينظر إليها مبتسماً:

ـ ياسو شينان!

إنه يستخدم تحية أليفة لذا عبست أمه، وأمسكت يده تكلمه بحدة باليونانية، بكلمات لا يمكن الخطأ في فهم معناها.. أصغى إليها يورجيو بكل وقار ولكن عينيه الكبيرتين كانتا حائرتين حين عاود النظر إلى شينان مكرراً ما قيل له:

ـ كاليميرا.

فابتسمت له شينان بتفهم.

ولم تكن شينان المتعاطفة الوحيدة معه، فقد نظرت إليه جدته بعطف، تهز رأسها إلى ابنتها العابسة، وقالت بهدوء:

ـ أظنك قاسية مع الولد إيلانا.. فهو لم يقصد أن يكون قليل الأدب وأنا أكيدة أن شينان لا تمانع.

قالت شينان بصراحة: «إن الأمر لا يستحق هذه الضجة».

ثم التقطت نظرة إيلانا الضيقة فهزت برأسها مردفة:

ـ هذا شأنك بالطبع إيلانا، ولكنني لا أعترض أو أمانع إن حياني بـ «مرحباً» عوضاً عن «صباح الخير».

ردت إيلانا بحدة: «لن أسمح لابني بتبني أخلاق إنسان قروي جلف».

كان معنى كلامها واضحاً لا لبس فيه، فشعرت شينان بحرارة الدم ترتفع إلى وجنتيها. قالت بثبات، أدهشها:

ـ ليس جميع القرويين جلفاء، إيلانا.. ربما بعضهم كما تصفين إنما ليسوا جميعاً.

لن تترك إيلانا بالطبع الأمر ينتهي عند هذا الحد.. فالتفتت إلى عيني شينان ثم قالت بإنكليزيتها الواضحة:

ـ أصدق قولك فخبرتي بالطبع مع الرجال القرويين محدودة.

ـ إيلانا!

أرادت السيدة أورميروس بصيحتها هذه الإمساك بزمام الأمور فكان أن تخلت شينان عن هذا الجدال ذلك أن الشجار مع إيلانا لن يكون بداية حسنة ليوم جميل كهذا، كما أنه لا يستطيع أحد تحدي سلطة العجوز حتى إيلانا. أكملت السيدة تناول فطورها وكأن شيئاً لم يهدد صفو الصباح الجميل.. ثم قالت بعد بضع لحظات:

ـ أريد معرفة المزيد عن مسألة «تو اسبيرو اينا».. هل سمعت عنها شيئاً شينان؟

ـ لم أسمع شيئاً عنه منذ يومين.. لأنني لم أشاهد باولو، ولا أعرف ماذا ينوي فعله القرويون.

انتفضت السيدة وسألت:

ـ أينوون القيام بعمل ما؟ لا أظنهم يستطيعون ما دام القانون يؤازر الآنسة غرانت ورفاقها.

ـ ربما يصعب القيام بعمل ما ولكنني أظنهم يريدون القيام بشيء ما. كان هذا ما قلته لڤانس في الأسبوع الماضي.

بدت السيدة منزعجة بشكل غامض لأنه ليس من العدل أن يقضي على هناء وأمن القرية وجود بعض الغرباء.

قالت إيلانا، وعيناها تبرقان بالسخرية:

ـ ما أغباهم! أيثيرون هذه الاضطرابات من أجل سمكة؟

ـ ليس الدلفين مجرد سمكة.. إنه من الثدييات.

سحبت إيلانا نفساً حاداً فقاطعت السيدة الحديث بعذوبة قبل أن تعبر إيلانا عن سخطها.

ـ إنه لمن المؤسف حقاً أن يكون هذا المخلوق بالذات مثار اهتمام الأميركيين. ما كانت المعارضة ستثور لو أخذوا دلفيناً آخر.. أشعر بوجوب القيام بتحقيقات واسعة قبل أن يؤذن لهم بنقله.

ـ هذا بالضبط ما حاولت قوله لڤانس تلك الليلة قبل وصول الآنسة غرانت وصديقها، ولكنه لم يقتنع.. لا أفهم لماذا لم يقم بسحب هذا التصريح.. فهو ذو نفوذ إلا إذا كان لا يهتم حقاً بالقرية بل بتلبية رغبات الآنسة غرانت.

كان في عيني السيدة تعبير غريب عندما نظرت إلى شينان.. ولم يكن ضحكاً أو ريبة.

سألتها: «هل قلت هذه الكلمات أمام ڤانس؟ أنت فتاة عنيدة شينان.. ولكن ألا تعرفين أن مثل هذه الكلمات ستغضبه!»

ردت تدافع عن نفسها: «كنت غاضبة كذلك. توقع القرويون منه مؤازرتهم ولكنه حتى الآن خيّب أملهم.. كم أتمنى لو يقوم بشيء ما!»

قاطعتها إيلانا بحزم: «لن يتوقع أحد من أخي استخدام نفوذه من أجل خرافات قروية.. عائلة أورميروس عائلة عريقة محترمة..

ونحن لا نشغل أنفسنا بأمور كهذه».

قالت شينان بنفاد صبر: «إذن يجب أن تشغلوا أنفسكم..! يعتبر هؤلاء الناس مصيرهم مرتبط بمصيركم. على أي حال، الدلفين الأبيض جزء من شعار عائلتكم.. ويجب أن يهمكم أمره بمقدار ما يهمهم أمره».

قالت إيلانا بلسان لاذع:

ـ وأنت تؤمنين أيضاً أن حظ أورميروس يعتمد على مخلوق يسبح في الميناء؟

تورد وجه شينان وهي تسعى إلى رد لا يجعل كلامها يظهر بمظهر السذاجة والبدائية:

ـ أنا.. أنا أؤمن أنه سيشكل فرقاً كبيراً لـ.. لمشاعر القرية.. إنهم ينظرون إلى العائلة على أنها رمز القيادة إيلانا.. ولكنهم حتى الآن لم يحصلوا من ڤانس سوى التعالي والعجرفة.. لقد دعا المرأة وشريكها إلى العشاء، وأظهر بذلك تأييده لهما! وأنا آسفة لأنني شاركتكم الجلسة لأنني بذلك فقدت حسن ظن أهل القرية بي.

ومضت عينا إيلانا بالشر، وقالت بهدوء ساخر:

ـ أتشيرين إلى باولو ساليس؟

تورد وجه شينان: «لا أشير إليه فقط ولكن بما أنك أتيت على ذكره، أقول نعم.. فأنا أعتبر رأيه مهماً».

ـ أخبرته عن الضيوف بالطبع!

هزت شينان رأسها. وتذكرت الخطة التي وضعتها معه لقضاء السهرة عند صديقيها.

ـ لو كان خريستو وكاتالينا في منزلهما.. لما اضطررت إلى المشاركة. كنت سأقضي الأمسية عندهما عوضاً من مشاركة ضيفي ڤانس العشاء. لكن لسوء الحظ أنه لم يكن لديّ بديل سوى الانضمام

إليكم للعشاء!

وبختها مدام أورميروس بلطف: «أوه.. شينان..!»

شعرت شينان بأن العجوز تفهمت موقفها بل تعاطفت معها..

أردفت العجوز: «كان سيعتبر تصرفك قلة أدب، وأنا واثقة أنك لا ترغبين في إحراج ڤانس أمام ضيوفه».

ـ لأنني لا أرغب في إحراجه، أردت الابتعاد. أعتقد أنه كان سيتفهم موقفي.

تنهدت تنهيدة عميقة ثم التفتت إلى المدام بابتسامة:

ـ ولكنني لم أتوقع منه تفهم دوافعي، فلقد تعودت على هذا.

ـ أنت مخطئة شينان.

ولكن شينان تعرف أنها غير مخطئة.

لم تكن شينان تشعر بالجوع، ففي قلبها قلق غريب غير واضح المعالم لا يُفسَّر ولا ينصرف عنها. وكان تأثيره فيها يجعلها قليلة الكلام ضعيفة الشهوة إلى الطعام.

أزعجها عدم مقابلة باولو وظنت أن ذلك هو سبب القلق. لذا قررت التوجه بعد الغداء إلى الميناء بحثاً عنه.

عندما نظرت إلى ڤانس عرفت كم سيكره فكرة هربها وراء باولو، ولكن رفضه لما تفعله لن يردعها.

بدا بالبذلة الخفيفة والقميص الحريري اللذين يرتديهما في غاية الجاذبية. لملمت نفسها بعدما أدركت أنها للمرة الثانية تنظر إلى ڤانس على ضوء جديد مثير للاضطراب.. إنها تراه رجلاً فتاناً وسيماً ولا تراه ابن عم عرفته ردحاً طويلاً.

يبدو أنها كانت تنظر إليه بشدة أكثر مما تدرك، فقد رفع بصره فجأة، ورفع حاجبه باستغراب وفي عينيه الدهشة. سرعان ما أشاحت بصرها واهتمت بوجبتها.. ولكنه ظل مستغرباً، وعندما سألها

بهدوء: «هل من خطب شينان؟» تسارع الدم إلى وجنتيها.

هزت رأسها نفياً: «لا.. لا شيء.. لماذا تسأل؟»

ـ لأن لديك وجهاً معبراً جداً.. «باتي».. ومن خلاله أرى أنك قلقة.

ـ لا.. لست قلقة.

ترفض أن يخاطبها ڤانس وكأنها طفلة، مع أنها تتقبل ذلك بكل سعادة من المدام أورميروس.. ولكنها وجدت نظراً للظروف أن من غير الحكمة الاعتراض فكان أن سعت إلى تفسير انشغال بالها:

ـ كنت.. أفكر ليس إلا.

ـ آه!

قد تعني هذه الآهة شيئاً ولكنها لم تحاول معارضته، بل وضعت شوكتها، والتقطت كوب العصير.

ـ هل لي بمزيد من العصير.. أرجوك!

تردد لحظة قبل أن يملأه لها، ثم سأل: «أتشعرين بالعطش؟»

ـ ليس تماماً.. لكنني أحب عصير البرتقال.. هل تراني طفلة لا تعرف ما تريد ڤانس؟

لم يرد فوراً، بل وضع الإبريق بهدوء:

ـ أتكرهين أن أناديك «بيتي».. سامحيني شينان، ولكن في بعض الأحيان تجعلين من الصعب عليّ أن أتذكر أنك لست طفلة!

احمر وجهها غيظاً.. وكانت على وشك الاحتجاج ولكنها لمّا نظرت إلى عيني المدام عضت على شفتها تصد رداً غاضباً، وقالت، مقطوعة الأنفاس:

ـ آسفة عمتي لاورا.

مدت السيدة يدها تلمس يد شينان بخفة، ثم نظرت إلى ابنها وكأن شيئاً لم يحدث:

ـ لن تكون معنا على العشاء الليلة، ديوس مو؟

هز ڤانس رأسه: «تعرفين أنني سأتعشى في الخارج».

هزت العجوز رأسها «أذكر».

نظرت إلى شينان ثم هزت رأسها، وكأنها فكرت مجدداً في ما كانت ستقوله.

ولكن إيلانا لم تكن مهتمة بصنع السلام، وكانت تنظر إلى شينان، والشر يلمع في عينيها، تبتسم بطريقة ذكرت شينان بقطة سوداء ملساء.. وسألت:

ـ ستتعشى في فيلا بايلون.. أليس كذلك ڤانس؟

ـ نعم.

لم يكن رده مشجعاً فقد أصاب اسم فيلا بايلون وتراً حساساً في ذاكرتها. ولكنها لم تذكر أين سمعت هذا الاسم حتى قالت إيلانا:

ـ إنه ضيف على الآنسة جويس غرانت والسيد فيغرمان.

لم يرد ڤانس، لكن شينان رفعت رأسها وملء عينيها التوبيخ.

ـ ستذهب للعشاء معهم؟

أحست فجأة بكراهية عميقة تجاه الأمريكية الحمراء الشعر. أسرت عينا ڤانس عينيها لحظات، مع أنها كانت راغبة في التخلي عن أي شيء في سبيل سحب نظرها منه..

سألها: «أتعارضين؟»

شدت على يديها: «ليس شأني ما تختاره من أصدقاء كما ليس شأنك ما أختاره أنا منهم!»

تعرفت إلى لهيب الغضب في عينيه، وعاد إلى طعامه ثم أجابها ببرود وهدوء:

ـ الظروف ذاتها غير موجودة في الحالتين.. شينان.. الآنسة غرانت والسيد فيغرمان ضيفان علينا وما كنا يوماً إلا مضيافين بحق

ضيوفنا.

ومضت عينا إيلانا الشريرتان وهما تنظران إليها، وقالت تضيف مفسرة ما قاله أخوها:

ـ كما أن الآنسة غرانت جذابة. أليست كذلك ڤانس؟

كان كلامها الجريء قادراً على إحراج مطلق رجل ولكن ڤانس لم يكترث لها.. ولم يرد عليها فوراً.. ثم قال: «إنها جذابة».

لفت شينان يدها حول الكأس متجنبة النظر إليه، وقالت بتهور: «أراها توافق طرازك!»

نظر إليها مجدداً وقد ضاقت عيناه، وقال بصوت بارد:

ـ تتكلمين بكل خبرة وثقة.. فهل لك أن تضيئي دربي بتفسير هذا الموضوع شينان.. هيا «ليوإينا» أخبريني ما هو الطراز... الذي ترين أنه يجذبني؟ ..هه؟

ـ حسناً.. بكل تأكيد ليس امرأة مثل جويس غرانت! أنت تقول دائماً إن مكان المرأة هو بيتها، وتمنعني من التحدث مع الشبان خوفاً على سمعتي! والله أعلم بأن ما من أحد أبعد عن المثال الذي تشير إليه دائماً من جويس غرانت!

حدقت العينان السوداوان إليها بثبات، فشعرت بانقباض في معدتها بانتظار رده الغاضب. ولكنه سألها بصوت منخفض هامس:

ـ أتكرهينها إلى هذه الدرجة؟

ارتبكت لأنها أدركت كم بدت كلماتها سامّة.

لعقت شفتيها الجافتين بلهفة، وتمكنت أخيراً من إشاحة بصرها عنه، وتثبيته على أصابعها المشدودة على كوب العصير. قالت بصوت خفيض:

ـ أنت.. تعرف أنني لا أحبها.

ـ بسبب الدلفين؟

رفعت بصرها إليه بسرعة، يدفعها إلى ذلك رنة غريبة في صوته، وبرودته الزائدة عن حدها أمام هذا الكم من التحدي.

قالت مؤكدة: «بالطبع بسبب الدلفين الأبيض».

لمحت شبح ابتسامة على فمه للحظة قبل أن يردد «بالطبع».

وتابع تناول وجبته، تاركاً الصمت المشحون الغريب في الغرفة الكبيرة الذي بدت حتى إيلانا خائفة من كسره.

كما بعد الغداء، نزلت شينان مرة أخرى إلى المرفأ بحثاً عن باولو، لم تجد له أثراً ولكنها رأت بانيوتي الذي لم يقف ليكلمها، وقد دلّ تردده على أن رصيدها عند عائلة باولو تضاءل كثيراً. أظهرت قسمات وجهه سخريته عندما ردّ على تحيتها وعندما سألته عن باولو رد عليها بهزة كتف فصيحة وكأنما لم يفهم سؤالها فشعرت بالكآبة والتوتر.

تأكدت الآن أن باولو يتعمد تجنبها، وهذا ما أغضبها فلا يحق له أن يلومها على ما لا يمكنها تجنبه.. ولكن، في الوقت نفسه تفهم وجهة نظره.. كانت واثقة أنها ستقضي الأمسية مع خريستو وكاتالينا تيغورس، ولن تلومه إن ظنها غيرت الفتة التي تساندها.

أمّنت لها الحدائق فيئاً ظليلاً بعد حرارة الميناء فوقفت تنشد بعض الخلوة.. جلست على جدار منخفض يفصل جهة من المسبح عن المنطقة المرصوفة خلفه. وفي ما كانت تنظر إلى المياه البراقة ودّت لو تستطيع أن تغوص فيها بدون عناء ارتداء البيكيني، فقد شعرت بأن السباحة قادرة على تهدئة مزاجها القلق.

غمست أصابعها في الماء لحظات، ثم وقفت تتابع سيرها إلى المنزل.. كانت مذهولة بحيث لم تكن تعرف الوجهة التي تختارها لذا شهقت مذعورة عندما أطبقت أصابع قوية فجأة على ذراعها لتوقفها.

رفعت بصرها تنظر إلى ڤانس بذهول، فابتسم وهز رأسه لها:

ـ أنت تحلمين.. حذار الاصطدام بمن هو أقسى مني شينان!

ـ آسفة!

كان اعتذارها عفوياً. هزت رأسها لتبعد عنها الذهول، ثم حاولت تحرير ذراعها من قبضته.. ولكن لم يكن تحرير يدها بالأمر اليسير إذ ظل ممسكاً بها وهي تنظر إليه باستغراب.. تبين لها من تعابير وجهه أن هناك ما يدور في خلده.. وقد أكّد ظنها كلماته التالية:

ـ أحب التحدث إليك.. فهلا دخلت إلى المنزل أم تفضلين السير في الحديقة؟

بدا أن في اقتراحه نوعاً من الحميمية الغريبة فتجاوبت غريزتها مع هذا الاقتراح برعشات خفيفة من الارتباك والتوتر.. لم تكن الدعوة بالطبع تقاوم. هزت رأسها موافقة على السير في الحديقة، متسائلة عما يدور في خلده.

قالت: «أفضل البقاء هنا في الخارج»..

هز رأسه موافقاً، ثم دسّ يده الكبيرة تحت ذراعها فانتفضت بشكل ظاهر ولكن راحته الدافئة قربتها منه أكثر.. نظر إليها وفي عينيه وميض يدل على أنه عرف تأثير رفع الكلفة بينهما. إنها لتجربة جديدة عليها أن تكون بقربه إلى هذا الحد لذا شعرت بتوتر غريب وهما يسيران بين ظلال الحديقة المشبعة بالعطر.

كان الهواء أخف بكثير مما كان عليه في ساعات الصباح الأولى ولكنه ما زال بارداً قادراً على تحريك الأشجار في حركات هامسة، كانت تنقل معها عطر زهر البرتقال والليمون والزهور الأخرى.. لم يكن هناك موقع أفضل من هذا ولكن شينان غير واثقة حتى الآن من مزاج رفيقها لذا لم تستطع الاستمتاع بجماله كما أنها غير معتادة على

ڤانس على أنه أكثر من قريب من أقربائها وأحست بالقلق لأنها تراه في دور عاطفي.

في اليومين الماضيين، شعرت به أكثر فأكثر كرجل لا كابن عم بعيد. ووجدت انشغال فكرها بهذا الواقع مقلقاً.

كان يرتدي قميصاً حريرياً عاجياً، يُظهر خطوط عنقه السمراء القوية. شعرت بالاضطراب لأنها تلاحظ مثل هذه الأمور فأكمام قميصه على سبيل المثال تعرض ذراعيه المفتولتي العضلات والطريقة التي تلتف فيها أصابعه القوية على ذراعها وتشدها إلى جانبه توحي بالتملك.. جعلها إحساسها به كرجل جذاب ترتجف فجأة خاصة عندما وقفا تحت فيء شجر كستناء عريضة الأغصان، وأخفض رأسه لينظر إليها.

ـ أردت محادثتي، فما هو الموضوع ڤانس؟

قال بلا مقدمات: «تورطك القريب مع باولو ساليس في مسألة الدلفين.. قد تجدين نفسك في ورطة».

ـ ورطة؟

لم تكن مستعدة لمجادلته بشأن باولو. رفرفت عينيها خائبة الأمل لأن السبب الذي دفعه إلى التنزه معها هو سرد القوانين المفروضة عليها لقطع علاقتها بباولو.

قالت له: «لا أدري كيف يمكن أن أقع في ورطة.. فأنا لم أرتكب هفوة..»

قال بلهجة متسلطة أذهلتها:

ـ ساليس محارب فعّال ضد الأميركيين.. ولا أريد أن تتورطي بنشاطاته شينان.

ـ محارب.. فعّال..؟ لا أرى لما تطلق عليه هذا النعت.. ما هو الدليل ڤانس؟ كان عليّ أن أعرف أن لرغبتك في محادثتي علاقة

بباولو.. أنت لن تستسلم أبداً..

- لا.. كوبيلامو.. لن أستسلم!

- لا تقل ثانية إنني متورطة معه.. لا أدري ماذا تقصد بقولك، فما أعرفه أن صديقي يحاول حماية الدلفين الأبيض! ومن الطبيعي أن أهتم بالأمر.. كمعظم أهل «بارستيوس»!

رد بحزم: «ولكنك لست منهم».

- بالطبع أنا منهم! فهذا هو موطني!

اشتد ضغط الأصابع على ذراعها، وقال يحذرها بهدوء:

- لا تتذاكي عليّ شينان.. فما أنت قروية ولست مجبرة على التفكير كالقرويات!

إنه الجدال القديم نفسه.. الجدال الذي دار بينهما أكثر من مرة، ولكن لم يحدث حتى الآن أن كان جدالها معه ساماً قاسياً كخلافها الذي وقع صباحاً مع إيلانا ولكنها لن تسمح لڤانس بالسخرية من صداقتها مع القرويين. قالت وهي تحاول التزام جانب الهدوء:

- أنا أفكر كما يفكرون، لأن إيمانهم إيماني، كما أنني متعاطفة مع وجهة نظرهم!

- أتقولين لي إنك تنظرين إلى الأسطورة على محمل الجد؟ أم أنك متأثرة بآراء الآخرين؟

- تعرف ما أشعر به تجاه أسر المخلوقات البرّية.. ولكن للمسألة جانب آخر، فأنت تعرف كم يهم الدلفين الأبيض أهل «بارستيوس».

- وكم يهم باولو ساليس بشكل خاص.. إلى أي حد بلغ تورطك العاطفي مع ذلك الرجل شينان؟

طغى الاحمرار على وجهها فجأة:

- أعرف رأيك بالنسبة لصداقتي مع باولو.. لكنني غير مستعدة للتخلي عنه لأنك وإيلانا تريانه إنسان أقل منكما درجةً! قلت لك سابقاً ڤانس، لن ترهبني أنت أو إيلانا للتخلي عن أصدقائي!

- أتتهمينني بإرهابك؟

بدا مذهولاً بسبب اتهامها.

- أجل.. أدعو هذا إرهاباً! إيلانا.. هل حدثتك إيلانا عني ڤانس؟

بدا أنه لا يستطيع الرد، وعلمت من صميم قلبها أن لسان إيلانا اللاذع هو ما أوصلهما إلى هذا الموقف. شدت يديها بقوة وهي تواجه نظرة ڤانس العابسة:

- لقد قمت بمجهود كبير لتجنب لقاء ضيوفي.. فلماذا شينان؟

- أنت تعرف السبب.

هز رأسه: «لم تذكري سبباً ولكنني أظنك رضيت بلقائهما بهدف الخداع. ولكنني لا أعرفك مخادعة شينان، ولذا وجدت سعيك لتجنب لقائهما مخيباً للأمل».

فجأة أحست أنها تميل للبكاء:

- لا أفهم السبب. تعرف أنني لم أحبهما ڤانس، وتعرف أنني لم أرغب في لقائهما وقد ذكرت لك ذلك قبل أن يحضرا!

- لقد أدنتهما حتى قبل أن تريهما والسبب كلمات ساليس.

هزت رأسها بإلحاح، عيناها مغشيتان بالدموع غير المتوقعة.

- لم يكن باولو وحده بل القرية كلها.. ألا تدرك هذا؟ باولو لم يخبرني إلا ما يقوله الجميع وما يشعرون به! باولو ليس الوحيد ڤانس؟

- باولو!

ردد الاسم بكراهية أدهشتها، ثم ومضت عيناه قبل أن يديرها

بسرعة وفظاظة لتواجهه. أحست بقلبها يخفق بقوة في صدرها وهو يمسك بها.

ـ ما هو بالنسبة لك يا شينان؟ ماذا يعني ذلك الرجل لك؟

قاومت قبضته القاسية لتهرب إنما ليس من قبضته القاسية فحسب، بل من ارتباكها ومن ردة فعلها على غضبه.

ـ ڤانس! دعني أذهب.. أرجوك دعني!

ـ أدعك تذهبين إلى باولو ساليس؟

وقبل أن تتمكن من الإنكار، تركها فترنحت للحظات وكادت تفقد توازنها.

قال بصوت بارد: «إن ذهبت الآن فلا تعودي إليّ مرة أخرى!»

أخافتها لهجته أكثر من كلماته، فلم يسبق أن شاهدته غاضباً إلى هذا الحد وكادت لا تصدق أنها هي من أثار فيه هذا الغضب كله.. هزت رأسها وعقلها يعاني من صدمات غريبة، ثم لعقت شفتيها بتلهف قبل أن تتمكن من الكلام:

ـ أنا.. أنا لم.. لم أفكر في الذهاب إلى باولو.. لن تصدق أنني..

قاطعها بخشونة: «بتُّ عاجزاً عن معرفة ما أصدقه عنك، الخيار خيارك إما أن تذهبي وإما أن تبقي!»

نظرت بلهفة إلى هذه القسمات القاسية فشعرت بمعدتها تتقلص بشكل مؤلم عندئذ هرعت إلى المنزل راكضة لا تلوي على شيء وكأنها مخلوق برّي هارب من كائن يخافه، كانت مقطوعة الأنفاس ومع ذلك لم تخفف من انطلاقها إلا عندما بدأت ترتقي الدرج.

ظنت في البدء أن لا أحد في المنزل إذ كان الهدوء هو السائد، فوقفت تسند رأسها إلى جدار بارد، ثم أحست بوجود شخص آخر.

كان يورجيو واقفاً على مسافة غير بعيدة ينظر إليها بعينيه

السوداوين الدعجاوين والقلق باد على وجهه الصغير، مرت لحظة أو اثنتين قبل أن تفهم سبب وقوفه هكذا بلا حراك.

ـ أوه يورج..!

همست بالكلمات وهي تسرع إليه في البهو المكسو بالسجاد. شاهدت شفته ترتجف، وعيناه الدعجاوان تومضان بدموع ظاهرة.

ـ كيف حدث هذا؟

هز يورجيو رأسه ببطء.. وكأنما الرد أبعد منه، وأحست شينان بشفقة غامرة على الصبي. كان تمثال أفروديت الرائع عند قدميه مكسوراً، مبعثر الرأس، محروماً جسده الجميل من تألقه الرائع. بدا واضحاً أن التمثال لم يقع على السجاد إنما ضرب على الحائط حتى تهشم هذا التهشم كله.

عندما أشارت بذلك إلى يورجيو بلطف، أطرق صامتاً.. لم يطاوعها قلبها على توبيخه وعوضاً عن توبيخه وضعت يدها على رأسه لتؤاسيه.

ـ هل كانت حادثة؟ أنت لم تنو كسره؟

هز رأسه بثبات: «أوهي.. شينان! لم أقصد!»

ـ لا.. بالطبع لم تقصد!

حاولت أخذ يديه بين يديها ولكنه كان يضعهما وراء ظهره ولم يدعها تأخذهما:

ـ إذن.. كيف حدث ما حدث يورج؟

تردد.. ثم أخرج ببطء يديه من خلف ظهره، فشاهدت فيهما كرة صغيرة ملونة، أظهرها لها بتفسير خجول.

ـ أبالا.. وقعت خلفه، وعندما حاولت أخذها.. وقع.

ـ فهمت..

تعلم أنه محظور عليه اللعب بالطابة في المنزل وتعرف تماماً ما

سيقوله ڤانس إن عرف سبب انكسار تمثاله الثمين. فهي خبرت غضبه بنفسها، وتكره أن يتعرض الصغير إلى مثله..

أحبت افروديت الصغيرة بمقدار ما أحبها ڤانس الذي لن يتفهم الصبي. ولكنها لا تستطيع التفكير في معاقبة الصغير على ما قد يفعله طفل في أية بيئة أخرى بدون هذه النتائج المأساوية.

- شينان؟

نظر يورجي إليها بعينين واسعتين متوسلتين لم تستطع مقاومتهما. وضعت يدها على رأسه، وأخذت أصابعها تعبث بشعره الكثيف.

- اذهب إلى الخارج والعب يورجي.. سأرى ما أستطيع فعله هيا يورجي.. اذهب والعب.

نظرت إلى افروديت المحطمة فغار قلبها لكنها ابتسمت للصبي الذي لم يتردد لحظة. راقبته وهو يركض مبتعداً ثم انحنت لتلتقط القطع مغمومة.

كانت تكاد تبكي لأن افروديت لن تقف بعد اليوم في فجوتها الصغيرة في الجدار. الله وحده يعرف ما سيقوله ڤانس.. ولكنها وعدت يورجيو المتوسل بحل المسألة، ويجب أن تحافظ على وعدها.

حملت قطع التمثال ثم حارت ماذا ستفعل. رفعت بصرها بسرعة عندما أنذرها حدسها بأن عليها أن تسرع بالتفكير، ولكن مهمتها لم تكن سهلة لأنها شاهدت إيلانا تتوجه إليها بارقة العينين.

- افروديت!

عندما مدت يدها لتتأكد من هوية التمثال، ضمت شينان القطع إلى صدرها بطريقة دفاعية قادت إيلانا إلى استنتاج خاطىء.. فقالت بصوت منخفض:

- كسرت افروديت.. أتعرفين ماذا يعني هذا التمثال لڤانس؟

ردت بخشونة: «أعرف.. إنما لست أنا من كسره إيلانا».

نظرت إيلانا مرة أخرى إلى البقايا المبعثرة، وبدا واضحاً أنها ترى إنكارها تهرباً، فقالت بحزم:

- لم يقع.. لا يمكن أن يقع وينكسر.. هذا أمر مستحيل!

- لا.. بالطبع لم يقع وحده، ولكن ما حدث كان صدفة إيلانا.. أرجو ألا تغضبي كثراً من.. يورجي.

ترددت في تسمية الصبي لأنها وعدت أن تمهد له الطريق.. لكن يبدو أن لا سبيل آخر، فإيلانا أمه وهي لن تلومه بقسوة لكن عينا إيلانا حاولتا حرقها:

- يورجي..؟ أتحاولين إلقاء اللوم على ابني؟

أما كلماتها الأخرى فانهمرت باليونانية وهي كلمات فهمت معناها إذ امتقع وجهها بسبب الرأي الساخر الذي أبدته بحق الأقارب الفقراء الذين يردون على اللطف بتحطيم الكنوز التي لا ثمن لها.

ضبطت شينان أعصابها بصعوبة وقالت بهدوء:

- إيلانا.. أرجوك، أنت مخطئة.. أنا لم أكسر التمثال.. صدقيني.. لم أكسره!

ردت ساخرة: «ولماذا أصدقك؟ لقد كسرت شيئاً ثميناً جداً لعائلتي، وتحاولين إلقاء اللوم على ابني! فلماذا أصدقك؟»

- لأنها الحقيقة..! اسألي يورجي يخبرك ما حدث!

ردت بثبات: «ولماذا أزج ابني في هذه المسألة.. سأخبر أخي بما فعلته.. وسنرى ما يفعله بك!»

وكان أن ابتعدت حتى قبل أن تدرك شينان ابتعادها. وهزت رأسها لأنها ستخيب أمل يورجيو المسكين الذي ستضطر إلى توريطه حتى تبرىء نفسها.

٤ ـ في شبكة الصياد

جلست شينان في غرفة نومها تحاول التفكير في أفضل طريقة لتشرح ما حدث لأفروديت. لن يكون الأمر سهلاً، وهي تتمنى لو أنها لم تأخذ على عاتقها هذه المسؤولية فليس التمثال كنزاً عائلياً وعملاً فنياً دقيقاً فحسب، بل هو قطعة أثرية.

كانت القطع المكسورة ملقاة على طاولة صغيرة قرب سريرها.. وبعد دراسة إمكانية تصليحها وجدت أن لا سبيل إلى ذلك، وهذه مأساة على ڤانس أن يتقبلها.

سيبعد يورجيو عنهابلا ريب كل لوم قريباً.. ولكنها ستلام لأنه كان بين يديها، وإيلانا، لن تتوانى عن تنفيذ تهديدها.. افروديت متجذرة في تاريخ اليونان وتمثالها هذا من ممتلكات أسرة أورميروس منذ ثلاثمئة عام والأنكى أنه كان جزءاً من تاريخ حضارتهم.

جعلها وقع أقدام مخنوقة ترفع بصرها بسرعة، خافقة القلب فقد كان عليها الإسراع إلى ڤانس لإخطاره بالأمر بنفسها وذلك قبل أن تتاح الفرصة لإيلانا التي ستحرّف الواقع. لم يخطر ببالها أنها تأخرت على إخطاره وأنه شاهد إيلانا وجاء إليها بغية مواجهتها.

نظرت إلى نفسها في المرآة وراحت تملس شعرها بيدها، كرهت ما فعلت، لأنها بهذا تبدو متوترة. تمنت لو تركت يورجيو يتحمل العاصفة القادمة بدل إرساله إلى اللعب.. أسرعت وكانت على وشك مد يدها إلى مسكة الباب عندما سمعت طرقاً عنيفاً، جعلها

ترجع يدها إلى الوراء.

ـ شينان!

انخلع قلبها من مكانه من شدة الارتباك فأدارت وجهها لتلقي نظرة على التمثال المكسور المرمي على الطاولة إلى جانب السرير. وكم كرهت أن تكون هي من تريه إياه، ولكن لا سبيل آخر فطرقه هذا يشير بوضوح إلى أنه على علم بما حدث.

عضت شفتها توتراً.. فلنفترض أنه لن يصدق كلامها ولنفترض أن يورجيو لم يعترف بفعلته؟ لكن لا.. لن تقبل منه ذلك فما يورجيو بطفل مخادع ولهذا سيعترف بجرمه عندما يُسأل ولكن عليها قبل ذلك تمهيد الطريق له.

عادت بسرعة إلى الطاولة قرب السرير والتقطت قطع المرمر الأبيض، أمسكت بها في يديها لحظات وهي تتساءل بذعر مفاجىء، كيف ستخبر ڤانس.. ارتج الباب مرة أخرى تحت ثقل اليد الطارقة، فحبست أنفاسها:

ـ شينان!

كان في صوته رنة ديكتاتورية آمرة، وتوقعت أن يدخل في أية لحظة. حملت التمثال بعناية بين ذراعيها، لكن صعب عليها وهي على هذه الحال فتح الباب، فاضطرت إلى أن تدس جذع التمثال البارد العاري تحت إبطها حتى تتمكن من إدارة مسكة الباب.

بعدما انفتح الباب، عادت تضع التمثال على صدرها، لكنها وجدت ڤانس أقرب بكثير مما توقعت، فارتدت لا إرادياً إلى الخلف. لم تشاهده قط على هذه الحال فارتجفت ولكنها مع ذلك وقفت تواجهه، تغلفها هالة قوية من الانفعال والغضب اللتين كانتا تنبعثان منه.

كان وجهه بعيداً عن الضوء، فبرزت قسماته القاتمة وكأنها

تفاصيل دقيقة على منحوتة برونزية. وأخذت مشاعرها تخزها كرد فعل على الانفعال الذي لا تفسير له.

لم يقل شيئاً للحظات، بل مد يده بصمت إلى التمثال، فأعطته القطع المكسورة خافقة القلب بسبب التعبير الظاهر على وجهه وبسبب نظرة الخيبة والرعب في عينيه.. عرفت بما يشعر لأنها خبرت شعوره هذا عندما وقع بصرها على التمثال المكسور.. مدت يدها غريزياً تلامسه بأطراف أصابعها.

همست: «ڤانس».

رفع رأسه نحوها ونظر إليها.. يسأل بصوت بارد حتى كادت لا تعرفه: «لماذا؟ لماذا شينان؟»

ـ أنا آسفة.

لم تجد ما تقوله سوى هذه الكلمات مع أنه اعتذار في غير محله. نظر إليها فترة، ثم هز رأسه:

ـ إن كنت راغبة في الانتقام بسبب ما صببته عليك من غضب ولكلامي الجارح، فلماذا لم تختاري وسيلة أخرى غير هذه شينان؟

مد إليها التمثال، يجبرها على التطلع إليه. فهمت لأول مرة ما يقول.. كان موقناً أنها المسؤولة، ونظرت إليه برعب فردد مصرّاً: «لماذا هذا؟»

هزت رأسها بإلحاح ثم قالت بصوت أجش:

ـ لكنني لم أكسره! لم أكسر التمثال ڤانس.. كيف تظن للحظة أنني الفاعلة..

قال بالصوت الخفيض البارد نفسه:

ـ قبل ساعة ما كنت لأصدق أما الآن والدليل بين يدي فلا أتذكر إلا غضبك عندما تركتني.. بعد لحظات من غضبك ذاك شوهدت افروديت بين يديك قطعاً متناثرة. فماذا أصدّق؟

نظرت إليه، والألم الذي يعتمل في قلبها ظاهر على محياها.

ـ أتصدّق أنني قادرة على تحطيم شيء جميل كافروديت.. لماذا تأخذ كلام إيلانا حقيقة لا ريب فيها؟

جالت عيناه السوداوان في وجهها ببطء، فبدا وكأنه يريد تقبل براءتها ولكن إيلانا أتقنت عملها:

ـ وجدته إيلانا بين يديك.. فكيف لها أن تشك؟

أشارت إلى الحطام الذي يحمله بلطف ورقة، وهزت رأسها:

ـ أنت تحمله بين يديك.. فهل أفترض أنك من كسره عامداً متعمداً.. ظننتك تعرفني أفضل من هذا ڤانس.. كيف لك أن تفكر للحظة أنني قد أقدم على تكسير شيء جميل كأفروديت.

ـ أجد صعوبة.. لكن.. كيف..

قاطعته بسرعة لأنها تتوق إلى تبرئة ساحتها:

ـ كان حادثاً.. صدقني أن الأمر حدث عرضاً.. وأشك في أنه أدرك أن التمثال في خطر.. بل لم يلاحظ ذلك إلا بعد انكساره. إنه معتاد على وجوده هناك.

ـ من هو؟

أدركت من تعبير وجهه الحائر أن إيلانا عنت ما قالته عندما قالت إنها لن تورط ابنها ومن الواضح أن ڤانس لا يعرف شيئاً عن دور يورجي. هزت كتفيها بقلق، وقالت:

ـ واضح أن إيلانا لم تخبرك شيئاً عن يورجيو.. ولكن ما وقع كان حادثة ڤانس.. ولا أظن أنه يجب أن يعاقب بشدة.

راقبتها عيناه، وفي تعبيرهما ما جعلها تشعر بقلق غريب.. قال بعد لحظات:

ـ لم أسمع شيئاً عن تورط يورجيو.. أتقولين لي إنه متورط؟ أرجوك، اشرحي الأمر شينان..

لم تستطع أن تنظر إليه، لأنها شعرت بأنها تخون الثقة التي أولاها إياها يورجيو.. ولكن ليس لديها خيار آخر إذ ترفض أن يقع اللوم عليها..

ـ قالت إيلانا إنها لن تسمح بأن يتورط أبداً. ولكنها تعرف أن هذه هي الحقيقة حين أخبرتها ما حدث و..

أمرها نافد الصبر: «الآن أخبريني أنا!»

ـ كان يورجيو يلعب.. ولهذا انكسر ولكنه لم يكسره عامداً متعمداً ڤانس. أنا وعدته بأن أقدم التفسير الأول لأحاول الحد من غضبك عليه.

كان واضحاً أنه يشك في قولها. عندما نظر إليها بثبات أحست بالاحمرار يحرق وجنتيها:

ـ تقولين إن يورجيو كسره؟

ـ لا.. ولكنه كان ملقياً على الأرض عندما وصلت، وقال لي إنه كسره.

ـ أنت فقط؟

رباه! أيصدق أنها تحاول إلقاء اللوم على يورجيو.

ـ أعرف أنه لم يكن موجوداً عندما وصلت إيلانا لأنني أرسلته إلى الخارج ليلعب.. ووعدته بأن أمهد الطريق له، وأن أشرح لك.

ـ تطوعت للدفاع عنه لأنك ظننت أن خاله لن يتفهم الأمر بهدوء.. هه؟

كانت عيناه تتهمانها وتوبخانها فوجدت صعوبة في النظر إليه..

أردف: «هلاّ ذكرت ما حدث بالتفصيل.. كوني محامية يورجيو ودافعي عنه».

ابتلعت ريقها بصعوبة، محاولة تبرير نواياها.. ثم أحست فجأة بأنها لم تكن منصفة عندما افترضت أن ڤانس سيعاقب الصبي بدون

رحمة. لعقت شفتيها الجافتين، ثم حاولت شرح الأمور:

ـ أخبرني انه كان يلعب بالكرة، التي سقطت تحت الطاولة المركز عليها التمثال.. فمد يده ليلتقط الكرة، لكنه اصطدم بالطاولة وسقط التمثال على الحائط وانكسر.

اشتد ضغطه على فمه غضباً، وبدأت شينان تعتقد أن مخاوفها الأولى مبررة على أي حال.. وقال:

ـ إذن.. كان يلعب بالكرة؟ تعلمين أنه محظور عليه لعب مثل هذه الألعاب في المنزل الذي فيه أشياء كثيرة قابلة للكسر.

هزت رأسها موافقة بصمت، فأكمل:

ـ مع ذلك لم تفعلي شيئاً سوى إرسال الصبي إلى الخارج ليلعب، وكأن شيئاً لم يحدث؟

ـ قلت لك.. وعدته..

ظهر على وجهه تعبير الاستهجان الغاضب:

ـ تعرفين قيمة افروديت.. وتعرفين كذلك أن لها ميزة أبعد بكثير من قيمتها المالية.. هل أفترض أنك لم تجدي في انكسار التمثال أكثر من انكسار دمية.

هزت رأسها يائسة:

ـ آه.. لا.. أعرف مدى قيمته ڤانس، وأعرف أنه أكثر من مجرد تمثال أثري ثمين.. ولأنني أعرف قيمته وعدت أن أدافع عنه!

في عينيه نظرة سوداء غاضبة يكاد الدخان يتصاعد منها فبدأت ترتجف:

ـ تدافعين عنه! أظننت أن توسلاتك قد تؤثر في؟ هل تصورت أن بإمكانك إقناعي بعدم معاقبته رغم علمك بأنه عصى أوامري عامداً متعمداً؟

خفق قلبها بقوة بين ضلوعها وانقطعت أنفاسها، فهزت رأسها لا

تعرف ما تقول:

ـ أنا.. أنا.. لم أكن أعرف.. لقد وعدته هكذا دونما تفكير في ما إذا كنت أستطيع فعل شيء له حقاً، واتضح لي الآن أن لا جدوى من وعدي له.

أكد لها متجهماً: «أجل، لا جدوى منه».

وضع قطع التمثال تحت إبطه الأيمن ومد يده اليسرى يجرها عن الباب قائلاً:

ـ سترافقينني لأنني أريد سماع الحقيقة من فم يورجي نفسه. تعالي!

ـ لكن.. ڤانس..

أجابها باليونانية وكانت كلمات غير مألوفة بالنسبة لها ولكنها عنيفة وفظة بحيث لم تشك في معناها لحظة. اقتادها إلى حيث كان يورجيو ويورجيو هذا طفل غير مخادع ولكنه عندما يرى أن هذا الغضب كله على وجه خاله فقد يخاف ويكذب.. خفق قلب شينان وهي تفكر في هذا الاحتمال..

أحست شينان بالبرد والعجز وهي تواجه إيلانا في الصالة الكبيرة. تضرعت إلى ربها ألا تحدث هذه المواجهة ولكنها حدثت إذ رأت وميض الرضى الشرير في عيني إيلانا.. كانت يدها على رأس ابنها.

بدا يورجي صغيراً شاحب الوجه ولكنه رفض النظر إلى عيني شينان. تمنت لو يستطيع الدفاع عنها كما دافعت عنه أمام ڤانس.. ولكن إيلانا لن تسمح له بذلك. ومع ذلك عليها المحاولة.. انحنت نحوه تمسك يده لبرهة قبل أن تنتزعها إيلانا منها بسخط، وتبعده عنها.

قالت شينان بهدوء: «يورج.. أنت تعلم أنني لم أكسر

التمثال.. وتعلم أنه كان مكسوراً حين وصلت؟»

لم ينظر الصبي إليها، بل إلى وجه خاله الغاضب، ثم إلى وجه أمه التي ومضت عيناها بلؤم وقالت ساخرة:

ـ أليس لديك كرامة.. كيف تضعين جرمك على كاهل طفل؟

ـ لكنها لم تكن جريمة بل كانت حادثة! نحن نعرف هذا يورج.. ولا حاجة إلى الخوف مما قد يفعله خالك لو اعترفت بالحقيقة. عليك أن تعترف يورج.. من أجلي!

لم يرفع الصبي رأسه فوقفت شينان تهز رأسها عاجزة.. وهي تكاد تبكي. إيلانا تعرف الحقيقة ولكنها لن تعترف بها.. أما ڤانس، فيبدو أقل اقتناعاً عما كان وهو في غرفتها.

قالت شينان بصوت هامس مرتجف:

ـ أرجوك.. أرجوك ڤانس.. أطلب منه.. قول الحقيقة!

كان على وجهه نظرة كئيبة سوداء أزعجتها، فقد أحست أنه لم يكن يوماً بعيداً كحاله الآن. نظر إليها بثبات عدة لحظات، ثم هز رأسه:

ـ اعتقدت أنني سأكون قاسياً في معاملة الصبي.. فهل تريدين الآن أن أنتزع الحقيقة منه، بغض النظر عن الطريقة وما السبب إلا خوفك على نفسك.

نظرت إليه برعب، تهز رأسها، لأنها لا تصدق أنه قادر على أن يكون على هذه الدرجة من الحقد.

ـ أتظن أن هذا ما أحاول أن أفعله؟ أنا لم أكسر افروديت ڤانس، وأظنك تعرف أنني لم أكسره!

ـ أعرف فقط ما يقال لي.

والتفت إلى يورجيو:

ـ يورجيو.. هل كسرت «توأيلما».

من الواضح أن الصبي واقع بين شرين. حذرته أمه من الاعتراف لئلا يعاقبه خاله بشدة ولكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يقع اللوم على شينان.

قالت شينان: «يبدو..»

وصمتت.. ثم تابعت:

- يبدو أن اللوم واقع عليّ! وأنت ڤانس غير راغب في أن يقع اللوم على يورجيو.

قالت كلماتها هامسة ثم ارتدت على عقبيها قبل أن تفسح له المجال للرد.

خرجت من الصالون تاركة صمتاً مشدوداً متوتراً خلفها، واتجهت عن غير وعي إلى الباب الخارجي.. لم تتذكر أنها لن تجد باولو إلا بعد اجتيازها نصف الطريق إلى الميناء.. فوقفت، تنظر إلى الخلف قبل أن تجلس.

كان الصخر ناعماً بارداً، وكانت شجرة قصيرة تظللها من أشعة الشمس.. لقد خذلها يورجيو، كما خذلها باولو.. شعرت فجأة بأنه ليس لديها من تلجأ إليه للعزاء.

مرت عدة دقائق قبل أن تلاحظ أن يخت جويس غرانت الأبيض البرّاق يشق طريقه في الماء. سرعان ما أصبحت متاعبها الخاصة ثانوية أمام قلقها على الدلفين الأبيض، كانت ترى الدلافين كلها تلهو على مقربة من سطح الماء، على مسافة قريبة من اليخت المتجه إليها مباشرة وكان ما راعها عدم وجود قارب يتعقب هذا اليخت.

وقفت بسرعة، تنظر إلى سرعة اليخت البطيئة وإلى جويس غرانت الواقفة على سطحه.. قد يكون هذا الوقت أنسب وقت ليضرب الأمركيين ضربتهم فالميدان فارغ لإيقاع الدلفين الأبيض في شباكهم.

راحت تعدو باتجاه الميناء وما هي إلا بضعة باردات حتى انقطعت أنفاسها. ولكن عليها الوصول إلى الميناء حتى تنذر الدلافين.

رأت الدلافين تستدير نحو الميناء غير خائفة وكانت تقفز في المياه برشاقة تاركة أقواس قزح لامعة من الرذاذ في الهواء، ولحق اليخت بهم بتؤدة، يلاحق صيده ببراعة.

لم تكن المياه ضحلة للغطس فيها، وكانت شينان قد أمضت ساعات طوال مع باولو وإخوته الصغار في القفز من فوق الصخور إلى أعماق البحر الآيجي الأزرق.. وهذا ما لم تخف منه يوماً. إنها ترتدي ثيابها ومع ذلك ستقفز في المياه حتى تغيّر الدلافين وجهتها وتغوص إلى أعماق البحر.

وقفت على الحافة كما كانت تفعل مع باولو وإخوته وقفزت برشاقة إلى المياه ثم ما لبث أن طفت تقريباً على الفور.

شعرت ببرودة المياه المنعشة وما هي إلا لحظة حتى استردت رباطة جأشها، كان يخفي صوت محرك اليخت البحر من حولها، فخاضت في عباب المياه عدة لحظات بحثاً عن الدلافين.

إنها سباحة ماهرة قوية لذا لن تجد صعوبة تذكر في الوصول إلى هدفها. عليها الآن إمّا تخويف الدلافين حتى تغوص نحو الأعماق أو جرها للسباحة معها.

قد يكون اليخت مزوداً بوسائل اللحاق بالدلافين ولكن عليها المخاطرة. إن أقل تأخير من قبل اليخت ثمين جداً.

سبحت حتى وصلت إلى حيث تلعب هذه المخلوقات الرائعة على مسافة قريبة من اليخت، تضرعت إلى الله حتى لا يراها أحد. كان الدلفين الأبيض بارزاً بوضوح بين الدلافين فتساءلت عما إذا كانت قد تأخرت، وعما إذا كان الأميركيون قد حققوا هدفهم.

ثم رأته.. كان رشيقاً في حركته غير خائف من البشر المقتربين منه. سبحت نحوه بحذر، تطلق تلك الأصوات المهدئة التي كانت تسمعها من باولو حين كان يود إقناع الدلافين باللحاق به.. والعجيب أنها نجحت!

اقتربت عدة دلافين منها، وكأنما ترحب بها ثم راحت تدور بعذوبة وصمت حول الشابة وكأنها تدعوها للانضمام إليها للعب.. شعرت بخفة وطيش غريبين لأن الدلافين استجابت لها، وكادت تضحك عالياً حين اقترب الجسم الأبيض «توآسبيرو إينا» وظهر بين الكائنات المرحبة بها.

سبحت بحذر نحوه، فانحرف يلاعبها ثم دار خلفها ووخزها بأنفه المستدير مبتسماً ابتسامة غريبة تكاد تشابه ابتسامة البشر. ليتها تستطيع البقاء قربه وليتها لا تتركه يغيب عن ناظريها لحظة، فلربما تمكنت بذلك من إبعاده نحو الأمان. غرب بارستيوس خليج صغير خفي لا يستطيع المركب ولوجه، ولسوف تحاول إدخالها إلى هناك..

سبحت بقوة، وهي تصيح صيحاتها طوال الوقت فكان أن انطلقت كلها معها.. وهي تقفز من الماء محنية كالقوس، قبل أن تعود إليها، بدا أنها تقوم فعلاً بعرض من نوع ما.. فشعرت شينان بإثارة لا تصدق ورغبت في البقاء بصحبتها طوال النهار.

لاحظت برضى أن «توآسبيرو إينا» غير بعيد عنها ثم ابتسمت عندما تسلل بين يديها الممتدتين نحوه برشاقة بدون أن يعي أنه المميز.

سمعت فجأة أصواتاً بشرية تصيح بها:

ـ تحرك بعيداً..! ابتعد أيها الولد المجنون!

جاءت التعليمات واضحة فلما رفعت رأسها رأت المركب قريباً

منها بشكل خطير.

حذرها الصوت مجدداً، وما هي إلا لحظة حتى توقف صوت المحرك، وتوقف فجأة المركب الذي أخذ يعلو ويهبط وكأنه وحش بحري يتهددها.. نظرت إلى صاحبه فتعرفت عينيها، حتى من هذه الزاوية الغريبة، إلى جيرارد فيغرمان الذي كان ينظر إليها وهو لا يصدق ما يرى.

ما لبث وجهه المدهوش أن تغيرت ملامحه عندما تعرف إليه وكادت تضحك عالياً لمرأى وجهه المستغرب وصاح: «يا إلهي!»

التفت من فوق كتفه لينادي: «جويس».

ظهرت جويس غرانت التي كان شعرها الأصهب يلمع وكأنه نحاس أحمر. نظرت إلى الماء، وبدت متوترة. كان وجهها الجميل يعكس نفاذ صبرها كأنها كرهت هذه المقاطعة، وسألت:

ـ ما الأمر؟

ثم عبست، واشتد ضغطها على شفتيها:

ـ إنها فتاة أورميروس!

أحست شينان بالحرج.. فالفستان الذي ترتديه كان يلتصق بها وكأنه خليط من طحلب بحري. قبل هذه اللحظة كانت تشعر أن ما فعلته يستحق العناء أما الآن فشعرت بالسذاجة بعدما أدركت كيف تبدو أمام هذين الناظرين عن سطح المركب.

صاح جيرارد فيغرمان وكأنه أدرك فجأة دقة وضعها: «اصمدي قليلاً.. سنرفعك إلى المركب آنسة شيروود!»

لوحت شينان بيدها لتنكر حاجتها للإنقاذ على يدهم.. صاحت بصوت مخنوق غير مسموع تقريباً.

ـ لا.. لا! أنا على ما يرام.. أعرف ما أفعل.. تابعوا سيركم!

حدق إليها جيرارد فيغرمان وهو لا يصدق ما تراه عيناه.

- بالله عليك! لن تسبحي وأنت مرتدية ملابسك.

أحسّت شينان بالتعب، وازداد قلقها لأن الدلافين كانت تسبح الآن سعيدة حول المركب المتوقف، ثم تقدم الدلفين الأبيض منها فجأة ليلمس جسمه الناعم جسمها. في هذا الوقت كانت جويس غرانت تراقب تحركه بعينين شرهتين.

صاحت، وكأن صوتها أجش من شدة الانفعال:

- إنه هنا! أحضر الشبكة! الشبكة!

كررت النداء لأن البحار اليوناني لم يفهم قولها.

سبحت شينان فوقف الدلفين الأبيض، ثم أخذ يسبح في حلقات صغيرة أخذت تتسع ببطء، وكأنما لا يريد المخاطرة بشيء..

صاحت شينان: لن تأخذيه ما دمت هنا لأنني سأبقى معه.

بدت عينا جويس سوداوين من الغضب، وأحست أن الدلفين الأبيض أخذ يقلق:

- أنت مجنونة! عليك الابتعاد من هنا، إلا إذا أردت أن تقعي في الشباك! استسلمي أيتها الغبية الصغيرة وإلا تأذيت!

هز جيرارد فيغرمان رأسه بإلحاح:

- لا.. بالله عليك جويس! لا يمكنك المخاطرة.

ومضت عيناها بغضب: «لن أفقده الآن».

تساءلت شينان، عما إذا كانت ستخاطر حقاً بأذيتها وتمضي قدماً في اصطياد الدلفين. وضع جيرارد يد على ذراعها يجرها إلى الوراء حين انحنت أكثر من اللازم لتلاحق تحركات الجسم الأملس الأبيض الذي طالما تاقت إليه!

- لا حبيبتي! إنه غير جدير بما سيجلبه علينا من متاعب. اتركيه، أرجوك، ستتاح لنا فرصة أخرى!

لم تنتظر شينان لسماع المزيد بل تسللت إلى المياه الدافئة بحثاً

عن «توآسبرو إينا» ورفاقه، ولكن تلك المخلوقات اختفت بسرعة أثناء شجارها مع أصحاب المركب.

سمعت محرك اليخت يعود للدوران. ظنت لبرهة أنها تسمع اسمها ولكن حين استدارت رأت المركب قد ابتعد، وحده صدى صوت جويس غرانت الغاضب كان يتناهى إليها.

سيبحر المركب قليلاً بحثاً عن مكان الدلافين.. يمكنها تصور مدى خيبة أمل الأميركية. عليها الآن أن تحمد الله وأن تعود إلى الشاطىء ولكن ما لم يخطر ببالها حتى الآن هو ما ستكون ردة فعل ڤانس عندما يعلم بما فعلت.

كانت قد ابتعدت عن الشاطىء أكثر مما أدركت، حين نظرت إلى المرتفعات الصخرية إلى ڤيلا «إسيتشيا» البيضاء القابعة وسط الأشجار الخضراء.. أحست بلحظات ذعر أعمى عندما فكرت في العودة سباحة فذراعاها تؤلمانها. ليت أحدهم يعرف بما فعلت. لا شك أن باولو سيقدّر لها ما قامت به من أجل «تو آسبيرو إينا» وسيخرج حتماً إلى البحر ليعيدها سالمة.

* * *

٥ ـ حورية على الشاطىء

وجدت المسافة حتى الشاطىء بعيدة جداً إذ شعرت بأنها سبحت ساعات طوالاً. كانت ساقاها وذراعاها تؤلمها ثم شعرت بأعصابها تسترخي وبقدرتها تخور.

خاضت عباب المياه مرة أخرى، تحاول إقناع نفسها أن الشاطىء قريب.. ثم فجأة طالعها شيء ما فأغمضت عينيها لحظة، ثم فتحتهما، لتقتنع أنها محقة.

نظرت إلى الجسم الأسود الذي أخذ يلوح أمام ناظريها. إنه أحد قوارب الصيد «تشيكوي» وقد خرج من ميناء بارستيوس. رفعت ذراعها، ونادت بمقدار ما أوتيت من قوة ولكن صوتها كان ضعيفاً جداً. فقد ابتلعت الكثير من الماء المالح في السباحة، وجفت حنجرتها. ولكنهم شاهدوها، إذ شاهدت القارب الصغير يتجه إليها وفي مقدمته شخص يشير إليها ويتفوه بأصوات لم تسمعها، ثم يلوح بذراعيه.

توقفت شينان عن محاولة السباحة، وتركت نفسها تطوف حتى يصل إليها القارب.. سرعان ما امتدت أيد متلهفة ورفعتها بحذر عن جانب المركب لتريحها بلطف على كومة حبال، وفي هذه الأثناء كانت أصوات الرجال تتمتم مطمئنة باليونانية.

لم تساعدهم في عملية إنقاذها.. لأن أطرافها كانت ثقيلة بشكل

لا يُصدق. ولكنها فتحت عينيها عندما أرجعت يد ضخمة خصلات شعرها عن عينيها.. كانت القسمات التي لاحت فوقها مألوفة، لكنها لم تستطع النطق وعندما ابتسمت تطمئنه، تمتم الرجل حامداً الله.

ـ «آفنوأين» ذيسبيناس أورميروس!

بدا كمن يشهد معجزة.

شينان التي استردت وعيها جزئياً، هزت رأسها، مع أنها اعتادت على سوء فهم المحليين لهويتها.

قالت: «شيروود».

في صوتها رنة قاسية خشنة ولكنها أردفت:

ـ «إيما آ» شينان شيروود، كابيتان برونس.

تمتم الرجل العجوز بورع: «الحمد لله».

ونظر إليها الكابتن بقلق ثم هزَّ رأسه وهو يقول بوقار:

ـ اعتقدناك غرقت ذيسبيناس.. شوهدت تقفزين من «ڤراهوس» إلى البحر.

ـ أتعني أنكم ظننتموني..

حدقت إليه، وهز العجوز كتفيه، وكأنه يعتذر ثم قال بلطف:

ـ من يدري ما وراء هذا التصرف ذيسبيناس؟ فالوجه لا يكشف دائماً عما في القلب.. ربما هناك تعاسة.

فكرت شينان: أجل.. كان هناك تعاسة.. ولكن تعاستها لم تكن السبب الذي دفعها إلى القفز عن الصخور باتجاه البحر. عليها أن تشرح لهم السبب، فهم قلقون أكثر منها، على سلامة الدلفين الأبيض.

ـ رأيت المركب.. كان يلحق بالدلافين. ولأنه لم يكن في الميناء قارب يلحق به فكرت في..

تمتم الكابتن العجوز: «توآسبيرو إينا»

ونظر إلى بحارته الذين تبادلوا النظرات، ثم أردف:

ـ هذا ما لم نكن نعرفه «ذيسبيناس»، علمنا الآن للتو أن يخت «لو اميركانيتيا» كان في مياه الميناء.. ولكننا رأيناه يبتعد.

ـ كادوا يقضون عليه ولكنني لم أترك الدلفين بل لازمت «توآسبيرو إينا» وكان عليهم اصطيادي بالشبكة معه وكادوا يفعلون.

لم يصدق القبطان برونس أن هناك أناساً بهذه القسوة.

ـ ذاين آفتوإين ذيسبيناس.. ما أسوأهم!

ـ ذيسبيناس؟

رفعت نظرها عندما ناداها أحد البحارة الذي انحنى وهو يقدم إليها كوباً من عصير البرتقال ويشجعها بابتسامة، فتمتمت شاكرة:

ـ إيفاهريتو.

وابتسمت إلى الشاب شاكرة. قال لها الكابتن:

ـ سيكون هناك الكثير من القلوب الشاكرة في بارستيوس ذيسبيناس.. لقد اعتقد بعض الأهالي أنك تخليت عنا بالنسبة لمسألة «توآسبيرو إينا» فأحزنهم الخبر.

أكدت له بلهفة:

ـ لكنهم مخطئون.. أخبرهم يا كابيتان برونس أنني ما زلت متعاطفة معهم.

ـ سأفعل ذلك بكل سعادة ذيسبيناس!

عندما اقتربت التشكوي من الميناء نظرت إلى الشاطىء فرأت أشخاصاً كثراً يقفون هناك. كانوا يتحدثون ويشيرون إليها كأنهم بانتظار وصولها.. أحست بخيبة أمل وبخوف وهي تنظر إلى نفسها مبللة مشعثة. ماذا عن ڤانس؟ لا تظنه يسامحها أبداً على ما فعلت.

استدارت بسرعة، والرهبة التي أحست بها ظاهرة على وجهها، تشد بقوة على الكوب الذي تمسكه.. لقد شربت أقل من نصف

محتوياته، وأحست أنها بحاجة إلى المزيد وبعد نظرة يأس إلى وجه الكابتن العجوز المتعاطف نهلت ما تبقى من العصير دفعة واحدة.

استردت بعضاً من شجاعتها وأصبحت مستعدة لمواجهة الناس على رصيف الميناء.

وجدت المزيد منهم عندما توقف «التشيكوي» ولكن الأصوات المتمتمة توقفت مع توقف القارب، رفعها القبطان برونس بنفسه إلى البر أما اليد التي امتدت لتساعدها على الوقوف فكانت يد باولو.

قالت بصوت يرتجف: «باولو.. أنا.. أنا قفزت لأنني كنت مضطرة..»

قاطعها صوته الهادىء: «أنت سالمة، وهذا هو المهم».

ـ اكويستي!

كان القبطان برونس رجلاً ضخماً أجش الصوت. سمعته يتحدث باليونانية بانفعال ولكنها فهمت ما كان يقوله. كان يسرد على مسامع القرويين السبب الذي دفعها للوثوب إلى المياه.

تورد خداها وهي تصغي إليه، لأنها لم تتوقع مثل هذا الخطاب ولأنها لم تكن مستعدة إلى أن تكون فجأة محط كل العيون. عندما طلبت من الكابتن أن يعلم القرويين أنها متعاطفة معهم في قضية الدلفين الأبيض لم تتوقع منه أن ينفّذ ذلك بإعلان علني فور وصولهم.

أخذ الناس يبتسمون ويهزون رأسهم. سألها باولو:

ـ أتفهمين ما يقوله القبطان برونس؟

هزت رأسها: «ليته لم يفعل.. لقد تصرفت بتهور، وهو أمر سخيف فعلاً..»

ـ لكنه عمل شجاع.. تأكدنا الآن أنك تقفين إلى جانبنا في هذه القضية.

اعترضت: «كنت دائماً حليفتكم ولكنني آمل أن أستطيع فعل المزيد.. أود لو أقنع ڤانس..»

هز باولو رأسه: «إنه لا يهتم بنا. كيريوس أورميروس يضع عينه على «الأميركانيتا» فكيف يستطيع الاهتمام بنا»؟

صدمها قوله في البدء ولكنها ما لبثت أن عرفت أن ڤانس لن يتعاطف أبداً مع أهل القرية ما دامت مصلحتهم تتعارض مع مصلحة جويس غرانت.. إنه غير مستعد للقيام بشيء من أجل الدلفين الأبيض لأنه منجذب إلى تلك الامرأة..

عادت إلى الواقع عندما سمعت الجميع يهتفون، ومضت عليها لحظات قبل أن تدرك أنها هدف هتافهم وتصفيقهم. إنهم ينظرون إليها على أنها بطلة من أجل إنقاذ الدلفين الأبيض..

وضع باولو الواقف إلى جانبها يداً متملكة على ذراعها، والتفت أصابعه على بشرتها الناعمة برسالة لا تخطىء. فهو لم يسامحها فقط على مساعدتها في استقبال الأميركيين، بل أخذ ينظر إليها على أنها فرد منهم ولكن موقفه هذا قد يفسّر تفسيراً خاطئاً.

كانت الأصوات المرتفعة عالية وملحّة لذا عندما خبت بشكل مفاجىء حارت في الأمر. ثم التفتت لتبحث عن السبب وإذا بأنفاسها تنحبس في حلقها بسبب الذعر المفاجىء الذي أطلق العنان لخفقات قلبها.

كان من المستحيل وصول السيارة الكبيرة عبر الطرقات الضيقة إلى الميناء فالطريق إلى الميناء منحدر وضيق جداً، ويتطلب إما معرفة فائقة أو مهارة مميزة في القيادة.. لكن ڤانس تمكن من هذا، وها هو يقف قرب سيارته السوداء، ليلقي نظرة على الناس المحيطين بها وبباولو.

بان على وجوه الحشد التوتر والانزعاج والغضب ولكن، عندما

تحرك ڤانس نحوهم، ابتعدوا عن طريقه، فاتحين له الطريق وهذا ما جعلهم يقفون في صفين طويلين. لقد أذهل ظهوره غير المتوقع شينان.

خفق قلبها بجنون فضمت قبضتيها وكأنها تستعد للدفاع عن نفسها. ثم راحت تراقبه بحذر، وهي تدرك أكثر من غيرها مظهرها الأشعث.

كانت حافية القدمين، فستانها يلتصق بجسدها وشعرها رطب تتدلى خصلاته إلى عنقها ووجنتيها. كانت الإثارة التي أحست بها في الدقائق الماضية، قد أزالت شحوبها وجعلت عينيها تومضان كجوهرة زرقاء في وجه أحمر برّاق.

ـ لقد سمعت..

وصمت.. أحست شينان بالرعشة لأنها رأت لهفة عميقة في عينيه، لا غضباً. لا شك أنه سمع بطريقة ما عن وثوبها إلى البحر من فوق الصخور، وافترض، كما افترض الآخرون، أنها حاولت الانتحار.. لم يكن قلقه غير متوقع ولكنه كان بالنسبة إليها غريباً فأثر فيها كثيراً.

مدت يدها تلمس يده بأطراف أصابعها وعيناها ناعمتان براقتان، وقالت بصوت مرتجف: «أنا بخير ڤانس».

نظر إليها صامتاً وعيناه تبحثان في وجهها عن الحقيقة. نظر بسرعة إلى باولو، فلاحظ التملك في يده التي تحيط بخصرها وبدا كأنه استجمع شتات نفسه فجأة، وأدرك أن حولهم أناساً وأنه محط أنظار المراقبين.

اشتد ضغط فمه حتى أصبح خطاً ثابتاً، وعاد إليه تعجرفه المعتاد الذي ظهر في تصرفه وفي عينيه:

ـ أرى أنك غير مصابة.. سأرافقك إلى المنزل لتكوني قبل

العشاء بمظهر لائق.

خنقها كلامه الواقعي، وأحست بتوتر جسدها، ولكنه أمسك ذراعها ثم لاحظت أن باولو تخلى عنها بدون اعتراض.

ربما كان عليها الاحتجاج لأنه سيصحبها إلى المنزل بهذه الطريقة، ومع ذلك رافقته بدون التفوه بكلمة. عندما كان يساعدها على الصعود إلى مقعد السيارة تذكرت أنها لم تشكر القبطان برونس بشكل ملائم على إنقاذه لها، فانسلت من يده وعادت راكضة، حافية القدمين مبللة الشعر عالمة بما يعتلي وجه ڤانس الذي يلحق بها من عبوس.

نظر إليها القبطان العجوز بلطف حين شكرته، وقاومت بجهد اندفاعاً إلى تقبيله.. لكن مثل هذا التصرف العلني سيحرجه، وهذا آخر ما تريده له. وقفت لحظات تبتسم له وتهز رأسها، ثم قالت:

ـ ليت بيدي وسيلة أخرى لإنقاذ الأبيض.

هز القبطان رأسه.

ـ وماذا نفعل ذيبيناس.. نحن فقراء وصاحب النفوذ يرفض مساعدتنا.

كان يشير بالطبع إلى ڤانس. فلم تستطع إلا أن توافقه الرأي، ولو على مضض، ثم فكرت فجأة بشيء لم يطرأ على بالها قبل الآن، فقالت:

ـ كابتان برونس.. أليس لديك ابن أخ في أميركا.. له علاقة بالصحافة؟

ومضت عينا العجوز، وابتسم:

ـ آه.. لماذا لم أفكر فيه؟ سيثير ديمتري ابن أخي الدنيا على هذه الخطة التي يهدفون بها سلب أهل بارستيوس! ستعرف أميركا كلها بالأمر! سأراسله، ذيسبيناس، هذه الليلة بالذات!

نظرت شينان من فوق كتفها لتتأكد من بعد ڤانس عن السمع وقالت:

ـ اتصل به هاتفياً.. الآن كابيتان.. سيوفر هذا علينا وقتاً فلكل يوم حساب.

بدا الفخر على العجوز، ولم يكن سهلاً عليه الوقوف بين جيرانه معترفاً بعدم قدرته على تحمل نفقة الاتصال الهاتفي إلى أميركا.. فتردد ثم قال بأدب:

ـ إذا كنت تظنين أن هذا ضروري ذيسبيناس..

وفهمت شينان مشكلته.

كانت تشتعل حماساً للفكرة، وقالت للعجوز:

ـ أرجوك.. أنا لا أساهم إلا بالقليل فلا أستطيع الخروج بقارب أو المراقبة.. ولكن إن سمحت لي بتسديد ثمن المخابرة شعرت بأنني فعلت ما له قيمته. فهل تسمح لي.. أرجوك؟

كان القبطان برونس على وشك أن يوافق ولكن لم يُترك له الوقت ليجيب، فقد تقدم ڤانس بسرعة إليها وعلى وجهه هذه المرة دلائل الغضب واضحة. أمسك شينان من ذراعها ليديرها إليه بفظاظة ثم هزها كما يفعل مع طفل مزعج عصاه..

ـ لن أنتظرك أكثر من هذا! لست خادمك لأقف هناك فيما تتبادلين أنت الأحاديث مع صديقك! تعالي!

أمسك ذراعها بقوة وحزم، وكأنما يخاف أن تراوغه ثانية. اقتادها إلى السيارة بحيث لم يعد لديها خيار آخر.. لا تعرف لما لم تعترض على مثل هذه المعاملة المتعجرفة إذ سارت معه ببساطة ودخلت إلى السيارة.

دخل ڤانس إلى جانبها غاضباً فشغل المحرك، ثم قاد السيارة على طرف الميناء الضيقة التي كانت أوسع بقليل من أزقة لم يعتد

على السير فيها سوى سيارات الشحن الصغيرة المعتادة على جمع السمك.. فيما مضى كان يقلقها غضبه أما الآن فلا تشعر بالقلق ربما بسبب النظرة المتلهفة التي رأتها في عينيه عندما شاهدها على الميناء.

كانت الطريق إلى ڤيلا إيستشيا أطول على الطريق المعبدة. ولكنها لم تعترض فهي بحاجة إلى وقت للتفكير في ما لو سألها ڤانس عن سبب عودتها لرؤية القبطان العجوز..

لم يتفوه ڤانس بكلمة وهو يقودها إلى البيت ولكن عندما وصلا لاحظت أنه أصبح أقل توتراً فتنفست الصعداء. فتحت باب السيارة بنفسها قبل أن يتوقف، وكانت على وشك الترجل ولكنه لم يمنحها فرصة لتجنبه. وأمسك ذراعها ليوقفها، ويديرها لتواجهه سواء أرادت هذا أم لم ترده.

كانت تظللهما شجرة دلب محنية الأغصان رمت ظلالاً قاتمة على وجه ڤانس، وأضفت على عينيه عمقاً.

ـ ماذا فعلت شينان؟ لماذا فعلت ما فعلت؟ لماذا أقدمت على ذاك العمل الغبي والخطير.

ـ لم يكن عملاً غبياً أو خطيراً إذ كان لدي أسباب وجيهة!

ـ أسباب يوافق عليها أصدقاؤك القرويون.. فقد بدوت محط انجذابهم!

ـ أرجوك ڤانس.. أنا...

ـ اضطررت مرتين في بضعة أيام إلى الخروج للتفتيش عنك لأنك هربت مني.. ولكنني لم أظنك غبية إلى حد أن تقفزي إلى البحر بهذه الطريقة التي بدوت فيها للعيان تنتحرين! لماذا قفزت؟ أتتعمدين جذب الاهتمام إلى نفسك؟

ارتدت عنه: «لن تصدقني».

ولكنه أدارها ثانية وعيناه تومضان بغضب أسود:

ـ ڤانس.. لا تفعل هذا أرجوك!

ـ طرحت عليك سؤالاً، أريد جوابه حالاً!

كرهت أن يعرف السبب وراء وثبتها تلك فحاولت مجدداً جذب ذراعها منه ولكنه رفض تركها. قالت معترضة: «لست طفلة لذا لا يحق لك أن تجرني إلى هنا أو أن تسألني شيئاً».

ـ بل لي كل الحق. أريد أن أعرف الأسباب التي تدفعك إلى تعذيب عائلتك.

اشتدت أصابعه على لحم ذراعها، ولم تحاول الإفلات منه، بل أبقت وجهها بعيداً عنه.

قال لها بقسوة: «كنت طائشة وطفولية في تصرفاتك، لذلك أعاملك كطفلة غبية لا تراعين مشاعر الآخرين... وهذا ما تستحقين!

ـ ڤانس أنا...

قاطعها مرة أخرى بعبوس ونفاد صبر:

ـ عادت إحدى الخادمات من القرية وهي تحمل قصة تقول فيها إنك شوهدت ترمين بنفسك عن الصخور إلى البحر.. وأنا..

قطع كلماته، ثم هز رأسه وكأنه يخلص نفسه من ذكرى مؤلمة..

أضاف بفظاظة: «أتدركين ما شعرت به؟»

تذكرت شينان مرة أخرى القلق واللهفة اللتين شاهدتهما في عينيه عند الميناء.. وبدا لها من غير المعقول أن يتأثر هكذا بفعلتها.. ولكن هل لكلماته تفسير آخر؟ رفعت نظرها إليه، وقلبها يخفق بشدة بين ضلوعها ثم شاهدت شيئاً في هيئته أقلقها بشكل غريب.

أنكرت بصوت منخفض عذب:

ـ لا أدرك ما شعرت به.. ڤانس؟

تمتم حانقاً باليونانية.. ولم تحاول أن تفهم ما يعني، بل تساءلت عن الانفعالات التي بدا أن سؤالها أثارها.. تفرس بها بصمت للحظات طويلة، وكأنما يسعى إلى الكلمات المناسبة ليشرح لها، لكنه لم يجد هذا سهلاً:

ـ عندما تركت المنزل كنت مضطربة بسبب انكسار افروديت..

ـ لم يكن السبب أفروديت بل ذلك الأمر المريع الذي تفوهت به.

ـ إذن لهذا ظننتك أقدمت على تلك الخطوة المريعة!

ردت دون تفكير:

ـ وعذبك ضميرك لأنك لم تصدقني؟ كنت متيقناً من أنني كسرت افروديت انتقاماً منك.

طافت عيناها على الوجه المتكبر الأسمر بحثاً عن اعترافه بالحقيقة أخيراً.. لكنها لم تجد شيئاً.

ـ لقد جرحني حتى أعمق أعماقي اعتقادك بأنني أريد الانتقام منك وأنا التي ظننتك تعرفني أكثر من هذا.

ـ أعرفك؟ وهل أعرفك شينان؟

في صوته تعبير أجش غريب.. بدت عيناه عميقتين إلى حد بعيد، وهما تنظران إليها. وكان رأسه مرفوعاً إلى الوراء بتعجرف ولكنه بدا ضعيفاً بشكل غريب..

ـ أعتقد أن باولو ساليس يعرفك أكثر مني!

كانت على وشك الإنكار، لكنها تذكرت يد باولو المتملكة على ذراعها، وكيف تركها على مضض عندما وصل ڤانس.. ربما ڤانس على حق، ربما يعرفها باولو أكثر منه، فهي تمضي وقتاً طويلاً معه

ووقتاً قصيراً مع ڤانس إلا في المناسبات العائلية.

قالت، تحاول إقناع نفسها بأن ما تقوله صحيح:

ـ أنت.. لا تهتم بي كثيراً.. بل تسعى جاهداً حتى أحسن التصرف كفرد من أفراد عائلة أورميروس! لم تعترف يوماً بأنني كبرت.. أليس هذا صحيحاً ڤانس؟

ـ لا؟

حمل السؤال المنخفض تورداً إلى وجنتيها، فتجنبت النظر إليه بسرعة. ولكن ما هي إلا لحظة حتى حبست أنفاسها فقد امتدت يده اليسرى لتلمس بخفة وجنتها بحركة لطيفة تثير الاضطراب..

ڤانس غير معتاد على التصرف معها بهذه الطريقة لذا استجابت له مشاعرها وكأنما قوة مستترة انطلقت من تلك اللمسة اللطيفة على خدها.. أما تفكيرها فكان مشوشاً يعيش صراعاً من المشاعر. عندما اعترف لها بأنه يحب أفروديت اقتربت منه إلى هذه الدرجة وهذه هي المرة الثانية ولكنها وجدت ما يحدث مثيراً بشكل لا يصدق.

ابتسم يسألها: «هل كبرت حقاً؟ وهل ستصبحين امرأة أبداً شينان.. أم تراك مجرد حورية «نيرايد»»؟

حوريات النيرايد مخلوقات أسطورية كن يجبن البحيرات والأنهر، وشواطىء البحر بانتظار إغواء الرجال لملاقاة حتفهم.. كان باولو قد أخبرها عدداً لا حصر له من القصص التي تتناقلها الأجيال. ولكن الحوريات مشهورات بجمالهن الرائع إضافة إلى خطرهن.. ولم تصدق بأن ڤانس يراها حورية خاصة وهي بهذا الثوب الملتصق بها وفي هذا الموقف غير الواقعي قليلاً..

وعت فجأة حالتها.. فمررت يدها فوق فستانها خافقة القلب بقوة ثم ضحكت بارتباك تقول:

ـ هل أبدو حورية خرجت من البحر؟ ولكن من أخرجني كان

تشيكوي برونس لا السحر.. انظر إليّ ألا تراني شعثاء المظهر بشكل فظيع؟

قال بصوت هادىء: «بل أراك جميلة».

وثب قلبها بجنون من مكانه فنظرت إليه متسعة العينين.

ـ ألم تري كيف نظر إليك الرجال؟ ألم تري النظرة في عيني باولو ساليس؟

عرفت الآن لماذا جرّها بعيداً عن الجمع بسرعة.. ولماذا غضب عندما عادت لتشكر القبطان العجوز. لقد ظنها تتعمد إبراز نفسها من أجل باولو، وكره ما تفعل..

قالت: «آه ڤانس! أنت مخطىء».

ـ وهل أنا مخطىء؟

نظر إلى قدها الرشيق بضع لحظات فتحملت نظرته بقلب خافق معذب..

سألها: «هل أنت حقاً عمياء أمام نظرات الرجال الشغوفة شينان؟ أم تراك تسعين إلى تعذيبهم للتسلية؟»

ـ ڤانس!

لم يصغ إلى احتجاجها، بل أمسكها بكلتا يديه فجأة وشدها إليه. لم تفكر البتة في المقاومة بل عوضاً عن ذلك أرجعت رأسها إلى الوراء عندما التفت ذراعاه حولها وضمتاها إلى جسده القاسي.

كانت لحظة جعلتها ترفع ذراعيها لتعقدهما وراء عنقه فقد شعرت بدوار غريب بسبب عناقه غير المتوقع. وعندما انحنى نحوها أغمضت عينيها عن رؤية قسماته السمراء القاسية...

وقفت عاجزة أمام مشاعرها الجديدة التي تجتاحها كمد قوي. أحست بالذعر والانفعال في آن ودار رأسها بتشوش غريب من جرّاء ردة فعلها.

عندما تركها أخيراً فتحت عينيها مقطوعة الأنفاس مرتجفة. نظرت إليه فرأته ينظر إلى ما وراءها عابساً، وعيناه تلمعان كالحجر.. في تلك اللحظة فقط، أدركت أنهما لم يعودا وحدهما.

التفتت بسرعة فرأت ماريكا ابنة عم باولو، تنظر إليهما من جهة الممر الآخر. الله وحده يعلم ما يدور في خلدها الآن ولكنها تقدمت إلى الأمام تنظر إلى شينان بسرعة قبل أن تكلم ڤانس. فهمت من كلماتها اليونانية أنه تلقى اتصالاً هاتفياً ولكن ذكر اسم جويس غرانت أزعجها.

إن كانت جويس غرانت المتصلة بڤانس فلن يلبث أن يعرف الحقيقة بشأن تهورها، وكانت تفضل أن تخبره الحقيقة بنفسها.. لو حاولت الشرح الآن لأصغى إليها أما جويس فلتنتظر قليلاً.

وضعت يدها على ذراعه: «ڤانس».

ولكن، عندما نظر إليها وجدت صعوبة لا تصدق في إيجاد الكلمات المناسبة.

ـ أردت أن.. لدي ما أريد قوله.

ولكنه ابتسم وشد على يدها لحظة، وهز رأسه:

ـ هناك من ينتظرني على الهاتف يا صغيرتي، كما أن عليك أن تغيري ملابسك استعداداً للعشاء!

أحنى رأسه يلثم خدها بسرعة.

ـ ويجب أن تستحمي صغيرتي، لتزيلي رائحة القبطان برونس و«تشيكوي» الصيد عنك.. وإلا لن يجالسك أحد على مائدة العشاء! أراك وقت العشاء.. هه؟

كادت شينان تبكي.. كان لديها الفرصة لقول الحقيقة ولكنها تركتها تمرّ.. والآن.. فات الوقت، كانت ابتسامته، وعناقه وحتى ضغط أصابعه على يدها، جديدة عليها، وكان وقعها مبهج لقلبها لذا

كرهت التفكير في أنها لن تتكرر.

لكنه سيغضب عندما سيتكلم مع الأمريكية هاتفياً. ولحقا بماريكا إلى الداخل حيث تقدم يلتقط الهاتف، يرد بود وهو يعرّف عن نفسه.

ساعتئذ فقط تذكرت كم بدا باولو واثقاً من إعجاب ڤانس بالمرأة الصهباء. أحست بالمرارة فجأة وهي تراقبه يصغي إلى جويس غرانت، كان في عينيها نظرة قاتمة تعيسة ولكن حين وضع السماعة من يده بعد لحظات، نظرت إليه باستغراب.

استدار ثم تقدم إلى حيث تقف على أعتاب الدرج وهز رأسه: «لماذا لم تذهبي لتستحمي؟»

لكنها ظلت تتمسك بالدرابزين الرخامي تراقبه بقلق..

سألت: «أهي الآنسة غرانت؟»

ـ أجل.. إنها الآنسة غرانت التي ترغب في المجيء إلى هنا لتراني في الغد.. والآن أرجوك، اصعدي إلى غرفتك واستعدي للعشاء، شينان!

ـ أجل.. أجل.. بالطبع!

أسرعت تصعد ترتقي الدرج، ولكن قلبها ما زال يخفق من الإثارة والقلق، فعلى ما يبدو أن جويس غرانت تريد أن تشكوها عند ڤانس وأن تواجهها. وهذا ما تفضل شينان تفاديه. خاصة في الفيلا. يبدو أن الأقدار ضدها في هذه اللحظات.

* * *

٦ ـ عودة الابن الضال

عندما نزلت شينان إلى الفطور في اليوم التالي أحست وكأنها تجلس على حافة بركان بسبب وجود مشكلتين لا حل لهما في رأسها.

أرادت أن تخبر ڤانس الحقيقة عن طيشها أثناء العشاء الليلة السابقة، لكنها لم تضع في حسبانها مجيء محام من أصدقاء ڤانس يتعشى معهم ذلك المساء.

كانت افروديت موضوع الحديث إذ طالما أعجب داڤين لويجي بالتمثال الصغير ولذا أبدى أسفه الشديد عندما علم بانكساره، ومع أن ڤانس مرّ مرور الكرام على مسألة كسره، إلا أن ذكره سبب خموداً مؤقتاً للحديث.

نظرت شينان بطريقة عفوية إلى يورجيو عند ذكر أفروديت، فشاهدت نظرة تعسة في عيني الصبي.. إنها نظرة لاحظتها عدة مرات منذ الأمس، بعدما رفض الاعتراف بكسر التمثال. تساءلت كم من الضغط مارسته إيلانا على ابنها لتتحقق من صمته.. لقد خاب أملها في يورج، وما من شك أن أمه هي الملومة على كذبه ولهذا لم تغضب منه.

تجد شينان متعتها الكبرى في ساعات الصباح الأولى لأن فيها تكون البرودة منعشة والهواء عطراً.

استيقظت باكراً يرافقها شعور بالاكتئاب هدد بإفساد يومها. بعد الاستحمام نظرت نظرة طويلة من نافذتها إلى الشمس الساطعة فشعرت بأنها أفضل حالاً بكثير، فكان أن نزلت إلى الفطور مغتبطة.

كانت أشجار الكستناء والدلب تتحرك بلطف وكانت أشجار السرو الطويلة تقف على أطراف المسبح وكأنها حراس سود.

تصاعدت من المطبخ روائح الخبز الطازج ممزوجة بشكل مثير للشهية مع رائحة القهوة، فركت شينان أنفها بكل رضى وهي تخرج إلى الحديقة.. إن كانت محظوظة فلن تكون إيلانا هناك، وستتحدث مع مدام أورميروس عن قيامها بإنقاذ الدلفين الأبيض بالأمس بدون التعرض إلى رأي إيلانا الساخر.

ستفهم العجوز دوافعها، أكثر من أي فرد من أفراد العائلة. وإن كان ڤانس حاضراً كان ذلك أفضل، فستخبره كذلك وتكون زيارة جويس غرانت بلا جدوى.

كان ڤانس والسيدة أورميروس معاً على مائدة الفطور فتنهدت شينان الصعداء لأن إيلانا غير موجودة هناك. بدا المنظر أمام المسبح رائعاً بحيث شعرت بأنه من غير المسموح للخلافات الشخصية أن تكدر صفوه.

بدا ڤانس مسترخياً مع أمه ومستريحاً وهذا ما جعلها تشعر بالتأنيب لأنها تفكر في إزعاجه ولكن، عاجلاً أم آجلاً سيعرف ما حدث عندما أفشلت آخر محاولات جويس غرانت لصيد الدلفين الأبيض، والأفضل أن يسمع الخبر منها على أن يسمعه من تلك المرأة. وإن استغرب أو غضب فليكن ذلك بدون وجود جويس غرانت.

في الوقت نفسه، كانت مضطرة للتأقلم مع المشاعر الجديدة التي لاحت في أعماقها بمجرد رؤية رأسه الأسود المنحني باهتمام

بسبب ما تقوله له أمه.. وكان لانحناءته ألفة مؤثرة لم تعها من قبل فتساءلت عما يصيبها أو سيصيبها إن ظلت تستجيب له كما حدث في الأيام الأخيرة.

كان القميص الأبيض الذي يرتديه يكشف عنقه السمراء فشعرت مرة أخرى بذاك الدوار الغريب في رأسها وتذكرت قوة ذراعيه عندما عانقها بالأمس.. وتساءلت مرة أخرى عما إذا كان منجذباً فعلاً لجويس غرانت، كما يصرّ باولو.

رفع رأسه مبتسماً لها فسرت رعشة صغيرة في أوصالها جعلتها تشد أصابعها في راحتيها..

قال: «كاليميرا شينان.. هل أنت بخير هذا الصباح؟»

إنها التحية المؤدبة التي يتفوه بها كل صباح ولكنها اليوم مشبعة بدفء خاص.. وهو نادراً ما يبتسم.. تمتمت رداً، وابتسمت للسيدة أورميروس.

ـ كاليميرا عمتي لاورا.

ابتسمت لها مدام أورميروس، ترحب بها بحرارة كما تفعل دائماً.. وربتت الكرسي إلى جوارها.. لم يكن أي منهما قد أكل نصف وجبته وهذا يعني أن أمامها وقتاً طويلاً قبل أن تثير مسألتها.

خرجت ماريكا تحمل صينية القهوة اليونانية القوية في فنجان صغير. كانت القهوة محلاة كما تحبها شينان ومعها أرغفة من الخبز الطازج الخارج للتو من الفرن..

كانت تصب فنجان القهوة عندما قالت السيدة أورميروس:

ـ إيلانا تأخرت.

ـ ربما هي نائمة.

بدا وكأن تأخر شقيقته يحيّره.. ولكن تأخير شقيقته لم يزعج شينان إطلاقاً بل أفرح قلبها. ولكن ما هي إلا لحظة حتى أتت إيلانا

راكضة.

كان واضحاً من طريقة سيرها السريعة أن شيئاً قد حدث، فنهض ڤانس قبل أن تصل إليهم ونظر إليها باستغراب: إيلانا.. تي سيمڤيني؟

كانت عينا إيلانا تبرقان بنظرة غريبة متوحشة، ثم اقتربت أكثر مركزة نظرتها على شينان.. إما هي غاضبة بشدة وإما هي خائفة.. لكن أحست شينان بقلبها يخفق قلقاً وهي تلتقي بالعينين السوداوين.. قالت إيلانا بإنكليزيتها المتحذلقة:

ـ ربما تقرر هذه.. هذه «اليانيكا» على أن تخبرك ما حدث؟

التفت ڤانس إلى شينان مقطب الحاجبين سائلاً:

ـ شينان؟

هزت إيلانا رأسها بنفاد صبر وقالت بصوت أجش:

ـ لقد رحل ابني.. فهو غير موجود في غرفته أو في المنزل، لقد ذهب!

ردد ڤانس الكلمة:

ـ ذهب؟ ولكن هذا غير ممكن إيلانا.. كيف للصبي أن يرحل؟ لماذا يرحل يورجيو وحده؟

رددت قوله: «ياتي؟ لماذا؟»

مدت أصبعاً نحو شينان بحركة تكاد تكون ميلودرامية مضحكة، وقالت تتهمها:

ـ أنت تعرفين سبب رحيل يورجيو.. تعرفين جيداً أيتها..

وأضافت شتيمة باليونانية حاقدة جعلت المدام أورميروس تهب على قدميها وفي عينيها غضب وتوبيخ لتقول بصراحة هادئة:

ـ إيلانا..! لا أصدق أنك قادرة على قول أشياء كهذه إلا إذا اختلَّ عقلك.. ما شأن شينان برحيل يورجيو؟

ارتجفت إيلانا من الخوف والغضب في آن واحد.

ـ رأيتها ليلة أمس عندما سأل داڤين لويجي عن أفروديت، وقيل له إنه انكسر.. رأيتها تنظر إلى يورجيو.. رأيت الطريقة التي نظرت فيها إليه! اسأليها.. لا يمكنها إنكار هذا! لقد خاف ابني منها فهرب!

ضاقت عينا ڤانس وهو يلتفت إلى شينان، وأحست بقلبها يخفق كالمطرقة بين ضلوعها.. فكان أن فضلت تجنب نظرته، ولكنها ردت عليها بتصميم وعزم.

نعم لقد نظرت إلى يورجيو، كما قالت إيلانا، وشاهدت تلك النظرة السوداء التعسة في عينيه.. ولكن، يستحيل أن تكون تلك النظرة السبب في فراره فقد دفعه سبب واحد إلى الفرار وهو عدم قدرة الصبي تحمل الشعور بالذنب.

ـ شينان؟

لم يكن في صوت ڤانس المتسائل إدانة أو ريبة بل تساؤلاً فردت معترفة:

ـ نظرت إلى يورجيو عندما ذكر التمثال.. إذ تعرف أن اللوم وقع عليَّ مع أنني لم أكسره، إنما يستحيل أن تكون نظرتي السبب في فراره.. كيف يمكن هذا؟ لم أعد النظر إليه فكانت نظرتي غير مقصودة لأنني أملت أن..

ترددت لأنها أحست بكراهية إيلانا العنيفة حتى بدون النظر إليها.. رفع ڤانس حاجبه متسائلاً عن سبب ترددها:

ـ نعم؟

رفعت نظرها إليه تهز رأسها؛ وقالت بصوت منخفض:

ـ أملت أن يعترف.. هذا كل شيء.

قفزت إيلانا متمسكة بالاعتراف وعيناها تشعان كقطعتي جمر في

وجهها الأحمر.

ـ آه.. أرأيت! لقد خاف الصبي.. سكوربيوس! ولهذا هرب!

ـ إيلانا!

أخرس تحذيره الحاد إيلانا التي ما تزال ترتجف غضباً وكان واضحاً أن ڤانس تأثر بشكل غامض بجدالها..

قال: «لن يكون يورجيو بعيداً.. من غير الممكن لطفل صغير أن يبتعد.. ربما هو في مكان قريب مختبئاً، وربما هو آسف الآن لأنه لم يتناول فطوره».

نظرت إليه إيلانا بعينين براقتين متهمتين، وبفم متزمت غاضب:

ـ أنت تهزأ من خوف ابني من منزله؟

هز رأسه.. ووضع يداً على كتفها يحاول تهدئتها:

ـ أنا لا أمزح.. إيلانا.. لكن من المستحيل أن يبتعد يورجيو كثيراً.

ـ إذن.. أين هو؟ لماذا هرب؟

ـ هذا ما لا أعرفه.. لكنني أقترح أن نفعل شيئاً غير الوقوف.

فتشوا المنزل والحديقة فلم يجدوا الصغير، عندها شعرت شينان ببرود ثقيل يضغط على قلبها.

أعلنت إيلانا بطريقة درامية:

ـ أرأيت.. لقد رحل!

قال ڤانس بإصرار: «إذن فهو في مكان قريب.. ربما تسلق الصخور، أو اختبأ بين الأشجار.. سنجده إيلانا!».

ركزت إيلانا عينيها الغاضبتين مرة أخرى على شينان:

ـ أرجو ذلك.

تبع ڤانس نظرتها، وهز رأسه مكرراً بثبات:

ـ سنجده.. ولكن على النساء البقاء هنا.. لا نريد لباحثين لا

خبرة لهم إعاقة حملة التفتيش. تسلق الصخور خاص بالرجال. سأطلب العون من القرويين لمساعدتي.

سألت شينان عن غير قصد تقريباً: «القرويون؟»

التفت ڤانس ينظر إليها، وقال بصوت خال من الريبة:

ـ إنهم أهلنا على أي حال.. وسيساعدوننا!

لم يقل المزيد بل سار في الشرفة تتبعه نظرات شينان التي تساءلت عما إذا كان يؤمن حقاً بولاء القرويين الذين لم يتعاطف معهم في الآونة الأخيرة.

كان في الصمت الذي يلف الناس المتحلقين في الميناء شيء غريب، وأحست شينان ببرود مؤلم يتسلل إلى قلبها خشية ألا يستجيبوا إلى طلب ڤانس. ليس منهم من قد يسمح بأذية طفل.. ولكن ڤانس مؤخراً لم يفعل ما يقرّبه منهم لذا قد يظهرون امتعاضهم.

كانت قد لحقت به إلى الميناء بدون علمه، ووقفت في مكان تستطيع فيه رؤيته وسماعه بدون أن يراها أحد.. لقد دفعها تهور لا يقاوم إلى التغاضي عن أمره القاضي ببقاء النساء في المنزل منتظرات.. راقبته بلهفة وهو واقف وسط الحشود. يفوقهم جميعاً طولاً، يقف بينهم متحدثاً بصوت قوي فيه ثقة بالنفس وتسلط. كان كلامه وصوته الرخيم دائماً مؤثرين في نفسها. إنه خطيب موهوب.

عندما أنهى ڤانس كلامه حبست شينان أنفاسها إذ لم يصدر رد فوري من الحشد المجتمع. عرفت ما يشعر به. إنه قلق حقاً على يورجيو الذي يحبه كثيراً.. لكن أهو قادر على إيصال قلقه إلى قلوب أهل بارستيوس؟ وهل هو قادر على فرض نفوذه ليوافقوا على مساعدته في التفتيش؟

امتد الصمت عدة لحظات لم يظهر في أثنائها رفضهم أو

موافقتهم. فكرت بجنون أنها ستنزل إليهم تطلب المساعدة بنفسها إن فشل هو في إقناعهم فهي تعلم أنهم لن يرفضوا طلبها بعدما جعلوها بطلتهم التي أنقذت الدلفين الأبيض الثمين.

ولكن هذا ما لم تكن ترغب فيه لأنها تعرف أن ڤانس سيكرهها بسببه، فهو رجل متكبر، وسيكون الأمر وكأنها تظهر له أن نفوذها على أهل القرية أقوى من نفوذه.

كان قلبها يخفق بإثارة بين ضلوعها، فأغمضت عينيها بصمت تتضرع إلى الله حتى لا تضطر إلى التدخل ولكن ما هي إلا لحظات حتى سمعت القبطان برونس يرعد بصوته الضخم بوعد بالمساعدة في التفتيش عن يورجيو.. سرعان ما سرى الحماس في الأهالي وانتهى انتظارها.

بدا أن الشكوك قد اختفت، وارتفعت الأصوات، واهتزت الرؤوس بالموافقة.. سيشارك الجميع بالبحث عن الصبي.. عندما شاهدت ڤانس يمسك يد القبطان العجوز، أغمضت عينيها ارتياحاً.. وكأنما ڤانس نال البراءة، وكأنما ما زال قادراً على الاعتماد على أهل قريته متى احتاج إليهم رغم الخلافات القائمة بينهم.

قفلت راجعة إلى المنزل سالكة الطريق الصخرية بخطى وئيدة. لم تقطع سوى خطوات حتى سمعت حركة وراءها ولأنها ظنت الشخص يورجيو التفتت بقوة، في عينيها لهفة وعلى وجهها ترقب ولكنها وجدت أنها تواجه باولو، فحبست أنفاسها دهشة.. لا شك أنه قادم من الطريق ذاتها أو أنه تعمد اللحاق بها، ولكن ظهوره المفاجىء أقلقها.

وقف ويده مستريحة على الصخر، تبتسم إليها عيناه البراقتان. نظرته هي ما جعلتها تشيح نظرها عنهما. لأن هذه النظرة هي ما علق عليها ڤانس. شعرت بدونما سبب بالخجل منه، كان يرتدي الجينز

العادي الضيق.. مع قميص أبيض رقيقاً.

ـ بوو باتي.. ذيسبيناس؟

كانت عذوبة صوته غير مألوفة فهزت رأسها لتصرف عنها التأثير:

ـ آه. لست ذاهبة إلى أي مكان.. في الواقع. فكرت في التوجه إلى الميناء.. ولكنني عدت فعدلت عن رأيي، وفي الواقع لا يفترض أن أكون هنا..

نظر باولو بلا اكتراث من فوق كتفه.. كان الحشد يتفرق بسرعة في مختلف الاتجاهات، بحثاً عن يورجيو ولكن باولو على ما يبدو غير عازم على المشاركة فتساءلت عن السبب..

ـ أردت التحقق من قدرة كيريوس أورميروس على التأثير في الناس.. ذيسبيناس؟

تساءلت لماذا يصر دائماً على استخدام اسم عائلتها عوضاً عن استخدام اسمها الأول.

ضحك ضحكة سريعة: من المؤسف أنه هو من يستطيع إقناع هؤلاء المساكين الأغبياء في التفتيش عن.. آنبسيوس، مع أنه لم يستخدم نفوذه من أجلهم.

لم يكن لديها استعداد لمحاورته بشأن ڤانس ومبادئه، خاصة وأن يورجيو مفقوداً.. هزت رأسها في وجهه مؤنبة:

ـ أرجوك باولو.. يورجيو مفقود.. لذا فأنا غير مهتمة إلا بالبحث عنه..! هل أنت هنا بغية التفتيش عنه؟

حدق باولو إليها عدة لحظات، وعيناه تومضان بحدة مقلقة وجدت صعوبة في تفسيرها.

ـ الصغير ليس لي ذيسبيناس.. وليس فرداً منا فلماذا أشارك في البحث عنه؟

لم تصدق ما سمعت، ولا تريد أن تصدق أنه لا يهتم.

ـ آه! باولو! يورجيو مجرد طفل.. يستحيل ألا تبدي اهتماماً بما قد يصيب طفل صغير بسبب كرهك لخاله!

نظر إليها باستغراب، وكأن الفكرة لم تخطر له على بال:

ـ أكرهه؟ وهل أكره كيريوس أورميروس، ذيسبيناس؟ لا أدري!

نظر إلى وجهها المتورد ثم هز رأسه، وأبعد نفسه عن الصخرة:

ـ ربما أريد أن أرى كيريوس أورميروس مضطرباً كما كنا مضطربين في الأسابيع الماضية.

نظرت شينان إليه وهي لا تفهم:

ـ باولو.. ألا تعرف أين هو يورجيو؟

لا تدري لماذا تشعر أن باولو دون سواه يعرف شيئاً عن مكان يورجيو. راقبته بلهفة فلم يرد عليها فوراً، بل وقف ينظر إليها وعيناه عميقتان لا قرار لهما عندها شعرت بأنها مقتنعة أكثر مما مضى بأنه يعرف شيئاً.

سألها بهدوء:

ـ هل يهمك هذا.. الصغير؟ ابن السيدة سيبروس التي تكرهك؟

بدا وكأنه لا يفهم سبب قلقها على ابن إيلانا.. فسعت تشرح له.

ـ يورجيو مجرد طفل صغير، وهو مختلف عن أمه.

كان صوتها رفيعاً غير ثابت، فهي تواجه منذ الآن نتيجة أن يكون هو من خبأ الصبي في مكان ما.. وأحسّت برجفة باردة سرت في أوصالها.. أردفت وعيناها تتوسلان بلهفة:

ـ إنه صبي لطيف وسوف يفزع لابتعاده عن بيته.. إن كنت تعرف أين هو باولو فخذني إليه.

عندما نظر إليها بصمت علمت في قرارة قلبها أنه لن يعرّض

الصبي للأذية لأن ليس من طبعه الشر.. ألم يكن لطيفاً ومتفهماً معها عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها يتيمة تعسة؟

قال لها أخيراً بهدوء: «إنه مع أمي وإخوتي».

تنفست الصعداء أما هو فأردف:

ـ وجدته هذا الصباح، مختبئاً بين الصناديق على رصيف الميناء باكياً.. إنه تعس هذا الصغير.

نظرت إلى يديها وهي ترد: «إن ضميره يؤنبه في هذه الأوقات».

سردت على باولو ملخصاً عما حدث لأفروديت.. فابتسم ساخراً:

ـ إذن.. خسرت عائلة أورميروس أحد رموز تراثها.. ولعل يد العدالة تدخلت بسبب رفض الكيريوس مساعدتنا في حماية رمزنا!

ـ باولو.. أرجوك.

رفع يده يسكتها: «ناي، ناي..»

ثم استدار في الممر طالباً منها مرافقته.

ـ سأصحبك إلى منزلي.. ولك عندها أن ترجعي الصبي إلى منزله.

ـ أتعني أن علي مرافقتك؟

رفع حاجبه متسائلاً: «ألا تريدين هذا الصغير؟»

ـ طبعاً أريده.. لكن..

ـ إنه في منزلي ذيسبيناس.. ألا يهمك إلى درجة أن تأتي بنفسك لتصحبيه؟

تحدتها عيناه.. وعرفت أنها تبدو حذرة.

ـ عليك مرافقتي إن أردت إعادته إلى منزله.

وأشار إليها مرة أخرى أن ترافقه، وفي هذه المرة لم تتردد.

لم يكن على الميناء أحد الآن، ولكن الأصوات كانت مسموعة

من التلال المكسوة بالأشجار. خطر على بالها أن عليها أن تخبر ڤانس والآخرين بأن الصبي بخير.

صاغت مخاوفها في كلمات، فوعدها بإرسال أحد إخوته لإخبار كيريوس أورميروس أن يورجيو عائد إلى منزله.. هزت رأسها مطمئنة البال ثم لحقت به إلى باب أحد المنازل الصغيرة البيضاء المصطفة على طول الميناء، القابعة أمينة بين التلال الخضراء.

لم تكن قد دخلت إلى منزل منها من قبل.. لم تكن صداقتها مع باولو غير حميمة ولم تبلغ حدّ زيارة منزله.. وهذا ما لا يمكن التفكير فيه في مثل هذا المجتمع الصغير، التقليدي التفكير..

لم تكن مهيأة لرؤية حجم البيت من الداخل أو نظافته وأناقته. أثاث المنزل قاتم، محفور بشكل جميل وهو يلمع من شدة اهتمام السيدة ساليس. جلس إلى طاولة خشبية قديمة دكناء يورجيو الذي كانت يداه تضمان بشدة كوباً سميكاً فيه حليب ماعز، وكان إلى جانبه بانيوتي، شقيق باولو الصغير الذي يبدو أكبر من يورجيو بكثير مع أن فارق العمر بينهما لا يتجاوز الثلاثة أعوام. نظر إليهما الصبيان بريبة عندما دخلت خلف باولو.. ساد صمت مطبق في الغرفة.

لم يبد يورجيو مستاء من مغامرته مع أنه بدا وكأنه يهم بالبكاء. كانت ردة فعلها الأولى الإسراع إليه لمعانقته، وبدا أنه سعيد كذلك، لكنها لاحظت عندما دخلت ارتعاشة على شفتيه وتردداً وقلقاً على وجهه.

ما إن دخلت امرأة إلى الغرفة حتى هبت شينان واقفة فتمتم باولو شيئاً باليونانية. هزت المرأة رأسها، فقال لها:

ـ مادبرامو، لا تتكلم أو تفهم الإنكليزية ذيسبيناس.. ذكرت لها هويتك وسبب مجيئك إلى منزلنا، وهي ترحب بك.

ابتسمت شينان، ولو ببعض الارتباك والقلق فهي تعرف كم

تصدم زيارتها هذه المرأة المتجذرة في تقاليد بلدها.

قالت: «تشيروبولي كيريا ساليس».

هزت المرأة رأسها ثم قالت شيئاً باليونانية، لم تفهمه شينان.

ـ ميديرامو تسأل إن كنت ترغبين في شرب القهوة.

فضحت عيناه رغبته في ردها.

ـ أم قليل من عصير الليمون الطازج ذيسبيناس؟

هزت شينان رأسها نفياً.

إنها تسيء الظن بترحيب باولو بها في هذه اللحظات، فهي ترى أنه بذلك يريد إثارة ڤانس عندما يسمع بزيارتها لمنزله..

ـ جئت فقط لآخذ يورجيو..

ـ آه.. ناي..!

انحنت السيدة ساليس الضخمة بحنان نحو يورجيو وحثته على إنهاء كوب الحليب فارتشفه هذا على مضض..

سألته شينان: «هل أنت مستعد للعودة معي إلى البيت يورجيو؟»

لم يرد.. بل وقف يحدّق إلى الأرض، وكأنما سيؤخذ من بيته لا سيعود إليه. جثت على ركبتيها تمسك يده بين يديها: «يورج..؟ ألا تريد العودة إلى البيت؟»

هز الصبي رأسه رافضاً.. فانحنت مدام ساليس تضمه إلى حضنها الدافىء، ثم ابتسمت له وقالت باليونانية إن عليه الذهاب مع «خالته» لأن أمه تعاني من قلق شديد لغيابه.. فهز يورجيو رأسه، ونظر إلى بانيوتي يوضح بجلاء أنه لا يريد ترك صحبته.

قال بصوت محروم: «هيريت.. بانيوتي».

أحست شينان بغصة في حلقها فجلوسه مع بانيوتي نصف ساعة فتح له عالماً جديداً.

أمسكت شينان يده بحزم، خوفاً من أن يرفض العودة معها،

ولكنه ظلَّ صامتاً هادئاً وهما يرتقيان الصخور. فكرت في إقناعه بالاعتراف بالحقيقة بالنسبة لما حدث لأفروديت ولكن بعدما أعلنت إيلانا أنه هرب لذاك السبب فمن غير المعقول أن يصدق أحد ما سيقوله بعدما تعيده إلى المنزل بمفردها.

فعلت ما بوسعها لتدخل البهجة إلى قلبه ولكنه تمسك بيدها وامتنع عن التفوه بكلمة مكتفياً بالنظر إلى البحر وكانت إشارة صغيرة جبانة جعلتها تدرك كم جعلته حماية إيلانا المفرطة جباناً متوتراً.

ليس عند يورجيو روح المغامرة كأترابه، بل كان متوتراً في محيط مختلف ليست فيه أمه، والغريب أنه استجمع ما يكفي من شجاعة ليهرب أصلاً.

أسرى صوت ڤانس القاسي البارد رعشة في ظهر شينان.. وشكرت الله لأن إيلانا كانت مهتمة باستعادة ابنها على الفضول المعتاد.

- كيف وجدته؟ قيل لنا إن الصبي عاد إلى البيت.. فكيف عرفت أين هو شينان؟

هزت رأسها بلهفة لئلا تعطي الانطباع الخاطىء:

- لقد تكهنت الأمر، ولكنني موقنة من أن باولو كان سيخبرني.

- تبدين واثقة جداً من هذا.

هزت رأسها: «طبعاً واثقة.. ألم يخبركم أحد إخوته بأنه عائد؟ ثم لا أظنك تصدق أن باولو خطفه!»

قال بفظاظة: «ما أعرفه أن هذا الرجل وقف ينظر إلى أصدقائه وهم يتفرقون للتفتيش عن الصبي الذي خبأه في منزله!»

- لم يخبئه! بل صحبه إلى منزله بسبب خوف الولد..

- لماذا لم يصحبه هو إلى الفيلا؟ لقد تركت هذا الرجل يخدعك.. أنت لا تنظرين إلى دوافعه ولا إلى مبررات فعلته هذه.

ردت مقطوعة الأنفاس:

- لكنني أرى.. أرى.. عمى بصيرتك! أنت لا تريد أن تصدق شيئاً واحداً طيباً عن باولو..

لم يتفوه لبرهة بكلمة ولكن عينيه السوداوين راقبتاها بطريقة جلبت انكماشاً غريباً إلى معدتها.

قال: «أعرف أنه نقل إليك المعلومات عن مكان وجود يورجيو.. كان يعرف أنك ستكونين هناك على الممر تنتظرينه.. ألم يحدث هذا؟ لقد خرجت من المنزل مع أنني طلبت منك البقاء مع إيلانا ومع أمي».

برقت عيناها غضباً، وهددت الدموع احتجاجاتها:

- آه، لا! نعم لقد لحقت بك. إنما لا سلطة لك عليّ لتمنعني من الخروج كما لا يحق لك أن تشير إلى أنني كنت على موعد مع باولو! أردت فقط..

عضت شفتها بسرعة، وهزت رأسها.. لم تكن تريد في هذه اللحظة بالذات أن يعرف أنها كانت قلقة عليه هو. هبت السيدة أورميروس إلى نجدتها، وراحت توّنب ابنها.

- يكفي أن يورجيو عاد سالماً.. أما الآن فلا نريد أن نضع اللوم على أحد بسبب هروبه فلنوقف هذا الشجار كله.

كانت شينان تنظر إلى ڤانس ذي الوجه الأسمر الغاضب، وذي الفم الصارم والحاجبين المعقودين.. تساءلت مرة أخرى ما هو الذي بينه وبين باولو حتى يتبادلا هذا الكره. شعرت بأنه ما كان ليكون على هذه الدرجة من الغضب لو التقت بشخص آخر على الطريق الصخرية.

لم يقل ڤانس شيئاً.. بل طافت عيناه عليها بنظرة سريعة أرسلت الاضطراب إلى أوصالها وجعلت أصابعها تشتد في راحتيها..

أحست أنه كان يرغب في التعليق على أمه صانعة السلام ولكن في تلك اللحظة رن جرس الباب فالتفتت شينان بسرعة ثم هرعت إلى الدرج.

لقد نسيت، في غمرة خوفها على يورجيو، زيارة جويس غرانت وها وصول الطارق قد ذكرها بالأمر ولأنها بحاجة إلى استرداد شتات نفسها رفضت البقاء حيث هي.

وكأنما ڤانس لم يكن غاضباً بما يكفي حتى تأتي زيارة جويس غرانت لتزيد الطين بلة، فكرت لبرهة في الفرار كما فعل يورجيو ولكنها عندما هربت في المرة الأخيرة يأساً من ڤانس لحق بها وأعادها.. وبدا لها أن لا نهاية للمشاكل التي تقض مضجعها المسالم الهانيء.

***

٧ ـ السيد لا يعتذر

عندما دخلت شينان إلى الصالة أول ما نظرت إلى ڤانس.. فرأته وللأسف غاضباً كما تركته في الردهة منذ وقت قصير.. ولكنها لم تتوقع منه شيئاً سوى الغضب فلا شك في أنه يشعر بأن لا نهاية لما تقوم به من هفوات وهي ترى أن جويس غرانت قد فسرت له ما حدث أسوأ تفسير.

عندما استدعاها بواسطة ماريكا كادت ترفض فلا شأن لڤانس بما تفعله وإن كان لدى جويس غرانت شكوى فلتقدمها إليها بنفسها ولكنها بعدما أعادت النظر وجدت أن رفضها مواجهة المرأة الأخرى قد يوحي بأنها خائفة من المواجهة..

عندما دخلت وجدت ڤانس واقفاً قرب الڤازة الرخامية الكبيرة المنحوتة المحتوية على زهور اللوز وإحدى يديه في جيبه والأخرى على حافة الڤازة.. نظر إليها حالما ولجت إلى الغرفة. في اللحظة القصيرة التي تلاقت فيها عيونهما، أدهشها أن ترى فيهما الكثير من الاستغراب الواضح، إضافة إلى الغضب.. وهذا بطريقة ما جعلها تتفاءل.

لم تكن إيلانا موجودة ولله الحمد أما المدام أورميروس فكانت جالسة قرب النافذة مع جويس غرانت. شجعها وجود السيدة العجوز لأن ذلك يعني أن لها حليفاً.

www.liilas.com
doode al 7aloo

من الواضح أن جويس غرانت تجشمت عناء كبيراً في زينتها.. فبدت أكمل مظهراً بفستانها الأخضر الشاحب الذي ارتدته عوضاً عن السروال والقميص اللذين كانت ترتديهما في المركب. وكان لشعرها الأحمر خشونة بارزة في برودة وهدوء الصالة، وفي عينيها بريق غاضب، يشير أن زيارتها حتى الآن لم تعطها الرضى الذي كانت ترجوه، فتفاءلت شينان.

مدت المدام أورميروس يدها لها فلم تتردد شينان، وبدا ڤانس معادياً عابساً:

ـ شينان.. باتي مو! ما هذه الحماقة التي سمعتها؟ أتريدين أن تؤذي نفسك؟ كيف تخاطرين بهذه الطريقة؟

لا يجدي أبداً التظاهر بالجهل.. ولكن شينان ترددت في تقديم شرح مفصل عن دوافعها أمام جويس غرانت.

ـ كنت قلقة على الدلفين الأبيض عمتي لاورا.. والقفز عن الصخور ليس خطراً أبداً.

أذهلتها زفرة ڤانس النافذ الصبر، ولكنها لم تنظر إليه بل تلقت ضغطاً مؤنباً على أصابعها، وقالت السيدة العجوز:

ـ القفز عن هذا الارتفاع عمل طائش.. كدت تقتلين نفسك!

ظلت شينان واقفة مع أن السيدة العجوز أفسحت لها مكاناً لتجلس قربها.. تجنبت بحذر نظرة ڤانس المسلطة عليها من طرف الغرفة الأخرى، وقالت:

ـ أوه.. لا! لا، ليس خطراً كما يبدو لكم، لقد قفزت عن هذه الصخور أكثر من مرة سابقاً.

راعت الفكرة المدام أورميروس، وكالعادة نظرت إلى ڤانس ليقدم لها تفسيراً سرعان ما صاغه في بضع كلمات جافة:

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا.

نظرت شينان إليه من بين أهدابها المطبقة وقالت:

ـ لا حاجة إلى معرفة الأمر ڤانس لأنك ما كنت لتهتم حتى لو عرفت وأضف إلى هذا أنك لست مسؤولاً عني فما عدت مراهقة في الثانية عشرة من عمري!

رد بصراحة: «أشك في ذلك، لأن تصرفاتك لا تدل على نضجك أبداً، أما بالنسبة لتصرفك الأبله بالقفز عن الصخور فوراءه بدون شك باولو ساليس وهذا حالك في كل ما تفعلينه».

أدهشها حقده وأحست بوجنتيها تحترقان بسبب توبيخها أمام جويس غرانت.

قالت بصوت حاولت أن يكون ثابتاً: «علمني باولو وإخوته الغطس الذي يصبح سهلاً عندما تعتاد عليه».

سألها بصوت أجش: «وهل أنت معتادة على الوثب بثيابك؟».

هزت رأسها: «بالطبع لا، ولكنني اضطررت في هذه المرة إذ كانت الظروف الاستثنائية تستدعي مني ردة فعل مختلفة.. لم يكن لدي وقت للتفكير إلا في الوصول إلى الماء.. كي..».

قاطعها ڤانس.

ـ ظروف استثنائية؟ وما الاستثناء الذي دفعك إلى المخاطرة بحياتك أيتها البلهاء الصغيرة؟

ازداد وجهها توردا، فلا يحق له أن يسيء معاملتها أمام جويس غرانت.

ـ كان مركب الآنسة غرانت في الميناء ولم يكن هناك أحد سواي في المكان.

ـ وما الغريب في وجود الآنسة غرانت في الميناء؟

أصبحت في موقف دقيق وخطير، فمن الواضح أن ڤانس لا

يعرف شيئاً عن نظام الإنذار الذي يتبعه القرويون:

ـ لم أر أحداً في الميناء.

التفتت بسرعة ناحية الأمريكية التي شرعت في شرح الأمر:

ـ ما تعنيه الآنسة شيروود أن لدى هؤلاء الناس التافهين نوعاً من جهاز إنذار، فما إن ننطلق بمركبنا حتى ينطلق أحد قواربهم الصغيرة وفي الواقع لا أدري كيف تصل إليهم الرسالة ولكنهم بطريقة ما يمررون الإشارة، فيخرج أحد قوارب الصيد، إما لتفريق الدلافين أو للاقتراب منا بحيث لا نستطيع استخدام الشباك!

بدا على المدام أورميروس الشك فيما تسمع: «جهاز إنذار؟».

ـ هذا صحيح مدام أورميروس.. ولكنه بالأمس لم يكن عاملاً فكان أن قفزت الآنسة شيروود إلى البحر!

نظر ڤانس إلى شينان بفضول واستغراب، رافعاً حاجبه بتساؤل:

ـ شينان، هل هذا صحيح؟

لم ترد عليه ولكنها أحست بشراسة عينيه عليها، كان غاضباً لأنها لم تخبره بنفسها عن سبب وثبتها تلك. وكانت جويس غرانت تراقبها أيضاً وكأنها تتساءل كيف سترد.. وربما تتساءل أيضاً، لماذا تتردد في الجواب.

تمهلت شينان في التفكير ثم نظرت إليه بعينين منفعلتين تتوسلان إليه أن يفهم موقفها..

قالت بصوت منخفض مضطرب:

ـ أرجوك.. لا تسألني.. أرجوك ڤانس.. لا أريد الخوض في الموضوع.

تجاهل توسلها: «هل هناك جهاز إنذار؟»

رفضت حتى أن تهز رأسها لتؤكد أو تنفي.. ووقفت قرب السيدة أورميروس تمسك بيديها بشدة:

ـ شينان؟

ـ لن أقول شيئاً! لقد اتضح لي إلى جانب من تقف ڤانس.. ولكنني أرفض أن أصبح خائنة أيضاً.

سمعت تنفس السيدة أورميروس التي اشتدت يداها على يدي شينان بقوة، فجأة، وكأنها تحذرها، وهمست:

ـ شينان!

لكن شينان لم تندم على ما قالت.

وقف ڤانس قرب القازة الرخامية، جامداً كتمثال من برونز. أحست شينان بقلبها يخفق بين ضلوعها، وهي تهز رأسها ببطء من جانب لآخر.. ما من أحد حتى الآن لاحظ لمعان الرضى في عيني جويس غرانت، التي تتوقع شجاراً حامي الوطيس بينهما.

كسرت جويس غرانت، الصمت الثقيل بصوتها الواضح:

ـ حسناً.. أظننا جميعاً نعرف حدودنا. أنت لا تتراجعين آنسة شيروود، حقاً؟

هزت شينان رأسها، لأنها لم تفهم قصد المرأة ولأنها كانت مهتمة فقط بالهجوم الذي شنته على ڤانس.. وقالت:

ـ ڤانس..

لكن جويس غرانت عرفت أن من الخطر السماح لها بالتوسل إليه، فكان أن هزت رأسها الأحمر بثبات، قائلة:

ـ أنت تؤيدين بقوة أولئك الأجلاف حبيبتي.. ولكنك ستأسفين على ذلك! ربما تظنين أن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لكم.. إنما اسمحي لي أن أقول شيئاً، لدي إذن قانوني لهذا الصيد لذا لن يحول بيني وبين الدلفين حائل خاصة أنت وصديقك الصياد!

نظرت شينان إليها متسائلة عما إذا كرهت يوماً شخصاً كما كرهت جويس غرانت.. سحبت نفساً عميقاً متحشرجاً في محاولة

للسيطرة على غضبها المتصاعد:

- لا أنكر أن القرويين أصدقائي الذين أحبهم وأقدّرهم والذين يثقون بي أكثر مما يثقون ببعض الناس.

عرفت أنها بكلماتها تلك ستقطع آخر جسر بينها وبين ڤانس ولكن غضبها أعماها عن كل شيء.

نظرت إليها جويس غرانت بدقة، عيناها قاسيتان لا تليّنان:

- لقد اخترت الأصدقاء غير المناسبين حبيبتي.. ولكن اعلمي أنني سأصطاد ذلك الدلفين رغم محاولاتكم الدؤوب لمنعنا!

- سنجرب.. لا تعدي دجاجاتك قبل أن تفقس.. آنسة غرانت!

أتت ضحكة جويس خفيفة ملؤها الثقة. نظرت إلى ڤانس وهي تتكلم لأنها واثقة من مساندته لها:

- لا أظن أن لدي ما أقلق عليه خاصة وإلى جانبي من أريد.

لم تؤكد أو تنفي نظرة سريعة إلى ڤانس ادعاءها لكن صمت الغاضب كان يكفي شينان.. فسحبت يديها بلطف من يدي المدام أورميروس، مبتسمة لها ابتسامة يشوبها القلق.. وكانت عيناها بارقتين، وصوتها غير ثابت ليوحي بالثقة لكنها بذلت ما بوسعها:

- لا جدوى من مناقشة هذا الموضوع بعد الآن. أصبح واضحاً أين هو تعاطف ڤانس.. أما تعاطفي فيقع على ما يبدو في الاتجاه المعاكس.. إذن.. لا لزوم للاستمرار في تبادل الإهانات! هلاّ عذرتني عمتي لاورا.. سأخرج!

ترددت السيدة أورميروس في السماح لها بالخروج فسعت إلى ڤانس تنشد دعمه..

قالت بهدوء: «شينان.. لا تتسرعي! أهل القرية..»

قاطعتها شينان والغصة في صوتها:

- هم أصدقائي عمتي لاورا! ولا أستطيع خذلانهم. يجب على

ڤانس أن يفهم هذا.

- شينان!

التفتت عندما نادتها العجوز:

- إلى أين؟ لقد حان وقت الغداء!

هزت كتفيها لأنها لن تستطيع تحمل عذاب الجلوس على المائدة مع ڤانس وهما على هذه الحال.

- سأتناول الغداء في غرفتي عمتي لاورا.. وأنا واثقة أنك تفهمين.. أرجوك سامحيني.. لكنني..

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم ارتدت على عقبيها قبل أن يلاحظ أحد الدموع الخائنة التي اجتاحت عينيها.. أقفلت الباب تاركة صمتاً عميقاً متوتراً في الغرفة الكبيرة..

تناولت شينان الغداء في غرفتها وبعد ذلك جلست أمام النافذة تتأمل الطبيعة خارجاً.

جعلتها طرقة على باب الغرفة تنظر إلى ساعة يدها، ثم ما هي إلا هنيهة حتى دخلت ماريكا التي سألتها بإنكليزيتها بلكنتها الغريبة عما إذا كانت ستتناول العشاء في غرفتها أم في غرفة الطعام، ولأنها وجدت نفسها ستتمادى كثيراً إن لم تنزل قالت:

- سأنزل للعشاء ماريكا.

ابتسمت الخادمة.

جعلت تعابير وجهها شينان تتساءل كم تعرف عما حصل صباح اليوم.. إن ماريكا على علم بما جرى في المنزل ولا شك في أن المواجهة بينها وبين جويس ستبلغ آذان القرية.

أنعشت نفسها بحمام ثم ارتدت فستاناً من الشوفين الأزرق اختارته لأنه يذكرها بما وصفها به ڤانس، من إنها حورية أكثر منها امرأة.

أملت أن يذكره هذا الفستان بتلك اللحظات النادرة بينهما، مسدت تنورة الفستان ثم سرحت شعرها الطويل إلى الوراء بعيداً عن وجهها، ولكن تدلت خصلات منه إلى الأمام على عنقها وعلى جبهتها فبدت بذلك أكثر جاذبية.

عندما نزلت سمعت أصواتاً في الصالة فخفق قلبها بعنف وانقبضت يداها بشدة.. واجه ڤانس مرتين في هذا اليوم ما يدفعه للغضب منها وتظنه لن يسامحها بسهولة على ما فعلته وعلى ما قالته عن خيانته لأهل بارستيوس.

كان واقفاً قرب النافذة. ما إن دخلت حتى التفت إليها، كانت عيناه عميقتين لا قرار لهما. لم يقل شيئاً، فغاص قلبها.. لكن السيدة أورميروس كانت تبتسم، وتمد يدها إليها بتفهم كالعادة.

دنت من العجوز وانحنت تقبلها متمسكة بشدة باليد التي تمسكها.. قالت وهي تحاول إبقاء صوتها خفيضاً لئلا يسمع ڤانس ما تقول:

ـ آسفة على ما حدث في الصباح عمتي لاورا.. تعرفين أنني ما كنت لأرغب بمثل ما حدث مهما كلفني الأمر لو تمكنت من تجنبه.. أنا آسفة.

ابتسمت العجوز لها بحب: «شينان!»

ثم نظرت إلى ابنها، المشيح بوجهه ناحية النافذة:

ـ ألن تقدمي أسفك لڤانس؟

نظرت شينان بسرعة إليه ثم هزت رأسها قائلة بصوت مرتجف أخافها:

ـ إن ڤانس مدين لي باعتذار أيضاً عمتي لاورا.

ولكنه سمعها مع أنها بذلت جهدها ليبقى صوتها غير مسموع فالتفت إليها بسرعة وقد ضاقت عيناه:

ـ أتظنين أن هناك ما يدعوني للاعتذار منك.. كساتليفي مو؟

كانت كلمة «كساتليفي مو» أي ابنة عمي، أول ما دعاها به عندما وصلت إلى اليونان وهي طفلة صغيرة.. ولم يعجبها سماعه يكررها بمثل هذه الرسمية.

عندما تلاقت نظراتهما كرهت ذلك السواد العميق في عينيه إذ يبدو كمن ينظر إلى غريبة.

قالت تذكره بصوت مرتجف: «كنت فظاً معي أمام تلك.. تلك المرأة.. وإن كنت سأعتذر منك ڤانس.. فعليك الاعتراف بأنك أخطأت بحقي».

نظر إليها بثبات، وسأل ببرود: «وبم أخطأت؟».

حبست أنفاسها لأنها لا تريد أن تتشاجر معه ثانية، فهذا آخر ما تفكر فيه.. كانت ترتجف كورقة في مهب الريح.

سيقع أمر ما يعيدهما إلى الجدال والشجار.. سحبت يدها من يد العجوز باندفاع متهور وشدت أصابعها في راحتيها، وعيناها تومضان وتتلألأن، وقالت بصوت منخفض:

ـ أنا لست جائعة.. ولا أشعر برغبة لتناول العشاء.

قاطعها ڤانس وعيناه تبرقان تحذيراً:

ـ ولن تتناولي العشاء معنا أيضاً؟ أين ترغبين منا أن نقدم لك وجباتك.. ذيسبيناس؟ في غرفتك لئلا يقال إنك تجالسين الأعداء؟

اغرورقت عيناها بالدموع ولم تستطع منعها:

ـ ڤانس!

مدت السيدة أورميروس يدها ثانية تمسك يدها لتكون مصدر سلوى لها لأنها قررت مغادرة الغرفة في أسرع وقت ممكن..

قالت بصوت يرتجف: «أنا أريد فقط ألا أتشاجر معك».

ضحك ضحكة قصيرة، وكأنه يرى كلامها عذر.. وسأل:

- وإلى أين ستذهبين؟ إلى كوخ باولو ساليس؟.

لم تنتظر سماع المزيد.. وما عادت تحتمل غضبه، أو سوء ظنه بها.. وهذا ما آلمها أكثر من أي شيء آخر، فقد أظهر أنه ما يزال يشك فيها بالنسبة لعلاقتها مع باولو. لقد حذرها بأنها إن ذهبت إليه فلن تتمكن من العودة وها هو الآن منكب على دفعها نحوه..

* * *

بدا البقاء طويلاً في الخارج دليلاً على اليأس.. ولكن ما لبث أن صعب عليها العودة.. كانت جاثمة على الصخور تراقب فلول النهار. أتى فرارها غريزياً لأنها كرهت بالفعل فكرة الشجار مع ڤانس مرة أخرى.. ولكنها الآن تجلس وحدها ورفيقها مشاعر أخرى تبعث الاضطراب والإزعاج إلى قلبها. لقد جرحها دعمه لجويس جرحاً عميقاً غير قابل للاندمال.

كان البحر كتلة لا تهدأ من الحريرالأسود. راقبت من مكانها على الصخور «التشيكوي» الصغير المنطلق للصيد مساء، وتساءلت عما كان سيفعله باولو في ما لو عرف أنها هنا في الأعلى وحيدة فوق الصخور.

كانت قد تسلقت مكاناً أعلى مما اعتادت على تسلقه وهذا التسلق صعب ولكن مزاجها المتعكر طغى على أي جهد جسدي شاق.. هنا الصخور أوعر ومع أنها قريبة من الطريق الذي يمر على طول الساحل إلى «بيلون» شعرت بالعزلة.. كانت تنظر إلى الأسفل نحو فيلا إيستيشيا بدلاً من النظر صعوداً كعادتها وقد أحزنها إحساسها بالعزلة.

مرت ثلاث ساعات على جلوسها في هذا المكان وها هي قرصات الجوع تخزها، وتجعلها تتمنى لو تستجمع قوتها لتعود إلى

المنزل. ولكنها شعرت بأن جويس غرانت مدعوة للعشاء وهذا ما تأبى مواجهته.

ضمت ركبتيها بقوة مضاعفة.. وعضت شفتها، عازمة النية على ألا تقوم هي بالخطوة الأولى. فسيقرر عاجلاً أم آجلاً أحدهم التفتيش عنها.. وقد تبادر إلى ذلك المدام أورميروس إن تقاعس ڤانس.. ومن الأفضل الانتظار حتى يأتي أحد وراءها عوضاً عن الظهور في الفيلا مهزومة معتذرة.

ارتجفت قليلاً أمام الريح الخفيفة التي هبت بين الأشجار، وتساءلت كم من الوقت ستنتظر؟ لا شك أن ڤانس سيلين أمام القلق الذي سيشعر به بعد وقت ما.. فهو لن يتركها تمضي الليل في الخارج.. ولكن ماذا إن لم يعبأ؟ أرسلت هذه الفكرة رعشة من نوع آخر، سرت في جسدها كله.

مرت ساعة أخرى قبل أن تنهض من مكانها، نظرت إلى البحر حيث تنصب عليه أشعة القمر الصفراء وكأنها ذهب متلألىء على صفحته المتأرجحة. وهزت رأسها بنفاد صبر لتصرف الدموع التي تدحرجت فجأة على خديها.. لن يأتي أحد.. وسيتركها ڤانس في الخارج طوال الليل، رافضاً التنازل والبحث عنها.

بدأت تهبط الممر الضيق بين الصخور فبدت في فستانها الأزرق شبحاً شاحباً وكأنها مخلوق غير بشري. ترامى أمام بصرها منظر الفيلا الأبيض ولكن لمَّا أطلّ أحدهم من الحديقة ارتدت بسرعة بين الظلال.

لا تخطىء أبداً بمعرفة صاحب ذلك الجسد المديد الذي مرّ بالأزهار الشاحبة اللون، يزيحها عن طريقه وهو يشق طريقه إلى الصخور.. ڤانس، وحده. وخطواته الليّنة تدل على أنه أقل غضباً عما كان.. فإن خرج على قدميه في مثل هذه الساعة من الليل فلأنه

يريد البحث عنها. أغمضت عينيها، ترفع يديها إلى ثغرها لتمنع تنهيدة الارتياح.

دفعتها ردة فعلها الغريزية إلى السعي إليه، ولكنها ارتدت على عقبيها متخذة الطريق المفضية إلى الميناء، مستجيبة إلى تهور لم تستطع تحديده.. كانت خفيفة الخطى على الأرض المألوفة لها، ولم تتوقف إلا لتصغي إلى وقع أقدامه الساعية وراءها، ثم استدارت لتكمل طريقها مسرعة.. كان واضحاً من الاتجاه الذي يتجه فيه أنه يتوقع أن تأتي من هنا وكانت رغبتها في هذه اللحظات عدم تخييب أمله.

أرسل القمر ظلاله المخادعة على طريقها فقلقت بعض الشيء وهي تسرع نزولاً نحو الميناء.. سمعت خطوات ڤانس القوية، الثابتة، تلحق بها. فتوقفت قليلاً مرة أخرى.. ونظرت إلى الخلف لتحاول تمييز ذلك الطيف بين ظلمة الصخور وبين الأشجار الهامسة باضطراب في النور الشاحب.

عندما شاهدته أخيراً كانت قريبة من الميناء، فخفق قلبها انفعالاً لأنها أدركت أنه كان يراها.. توقف ڤانس في نقطة ما على الطريق وأخذ يتطلع في النور الشاحب مرهف السمع منحرف الرأس.

ـ شينان؟

تناهى إليها صوته خفيضاً عذباً فاستجاب قلبها بعنف للصوت فكان أن توقفت رغماً عنها وخرجت من مخبئها خلف صخرة مرتفعة قرب الممر.. تتنفس بخفة واضطراب.. انتقلت من الصخرة المرتفعة إلى أخرى أقل ارتفاعاً على الممر، ومنها إلى أخرى، تطوف كشبح شاحب أزرق حتى أجبرها البحر على الوقوف.

ارتفع البحر إلى الصخور.. ولكنها في عجلتها تعثرت ووجدت نفسها تتعلق بشدة بنتؤ صخري منزلق أما البحر فكان يغطي قدميها

وساقيها بزبده ويبلل أطراف ثوبها. سمعت خطوات ڤانس على مقربة شديدة منها، فاستكانت حيث هي..

ـ شينان!

تعالى صوته فوق خرير المياه المتململه التي لا تتوقف، وهمست الريح بعذوبة بين الأشجار، أما شينان فحبست أنفاسها، بانتظار ما سيفعل. ولكنه لم يتحرك فالليل الصامت قادر على أن ينقل إليها أقل حركة أو همسة.

سأل بصوت حاد كالفولاذ رغم انخفاض وتيرته.

ـ لا تهتمين بما تسببينه بطيشك؟ كفى شينان، وتعالي معي!

لم تتحرك، بل تعلقت بالصخرة وهي ترد عليه:

ـ هل اعتقدت أنني كنت مع باولو؟

أدركت أنه لحظتئذ عرف مكانها:

ـ شينان!

أثرت لهجة الاضطراب في صوته فيها تأثير الألم الجسدي، فخرجت من مخبئها إليه. من يراها هكذا يظنها خارجة من البحر، فستانها الناعم يتطاير حولها وكأنه روب إحدى حوريات النيرايد..

لم يتحرك للحظات أي منهما أو يتكلم.. وقف ڤانس تحت سماء الليل، وعيناه تبرقان.. كان قلبها يخفق بسرعة ولهفة بين ضلوعها. رفعت نظرها إليه.. فإذا سلسلة لا تنتهي من المشاعر تدور في عقلها. لم يبدُ غاضباً، ولكن، في تعابيره إثارة امتدت لتغلفها وكأنها شعلة من نار.

سألت بصوت خفيض أجش: «جئت تبحث عني؟»

هز رأسه ببطء.

ثم تقدم إليها فتضاعفت وتضاعفت نبضات قلبها، عندئذ أغمضت عينيها بسبب ما يعتمل في قلبها من مشاعر.

ـ لم أضطر للبحث طويلاً.

أرادت أن تمد يدها إليه ولكنها لم تكن متأكدة من ردة فعله. ألم يكن غاضباً بشدة عندما تركته؟

لم يقل شيئاً.. وكان الصمت ثالثهما، ولكن كلماته لم تترك مجالاً للشك. لقد قطع هذه الطريق بحثاً عنها.. نظرت إليه وفي عينيها توبيخ.

ـ ظننتني مع باولو!

لم يرد بل مد يده، أما هي فارتدت لا إرادياً خطوة إلى الوراء وكادت تنزلق فوق الصخور، فصرخت ولكن سرعان ما أصبحت بين ذراعيه.. يشد عليها مطمئناً.. ظل صامتاً لبرهة ولكنه أمسك بها بقربه ووجهه يستريح على شعرها الناعم الأشعث.

همس بهدوء في أذنها:

ـ أنت لم تكوني مع باولو ساليس.

رفعت رأسها تنظر إليه فإذا عيناه السوداوان تومضان تحت نور القمر الأصفر.

ـ لوكنت معه لعرفت!

لم تسأله من أين أتى بثقته هذه، بل خبأت وجهها في صدره، تحس بانفعال بين ذراعيه.. ثم أبعدها ببطء عنه حتى أصبحت على بُعد ذراع منه.. وقال لها بصوت عذب منخفض:

ـ لحقت بك فوق الصخور وكأنني قروي فلاح يؤمن بالخرافات وتجذبه حورية.. يجب أن أغضب منك على خداعك ذاك.

أرجعت رأسها تنظر إليه بعينين مستغربتين:

ـ ولكنك لست غاضباً؟

هز رأسه ببطء، يديرها ليرتقيا الممر، شابكاً ذراعه بذراعها وممسكاً معصمها بأصابعه.

ـ ربما كنت غاضباً أكثر من اللازم في الأيام الماضية.. لقد تكلمت مع يورجيو، واعترف بكسره لأفروديت.

قطبت شينان: «أنت.. أنت لم..»

ضحك ڤانس ضحكة عميقة وقال:

ـ لم أضربه حتى يعترف. أخبرني كل شيء بإرادته، وذلك عندما اعتقدك هربت!

شعرت بأنها ما تزال بحاجة إلى تأكيد فطباع ڤانس قاسية بل عنيفة..

ـ ألم.. تعاقبه؟

ضحك مرة أخرى، وقال يتحداها:

ـ أتريدين أن أعاقبه؟ ألا تخافين عليه من عقابي؟

ـ لا أريد أن يُعاقب أبداً. ولكنك غضبت مني لأنني أرسلته ليلعب، حتى ظننتك..

ـ كنت غاضباً منك، لأسباب كثيرة مؤخراً.. أتعتقدين أن غضبي قد زال؟ ألأنني سعيت إليك لأعيدك إلى البيت؟

خفق قلبها بألم:

ـ أنا.. لست أدري.

ـ ألا تظنين أن لي أسباباً تدفعني إلى الغضب خاصة بعد تصرفك هذا المساء؟

هزت رأسها: «تشير إلى آنستك غرانت؟».

سألها بهدوء: «آنستي غرانت؟ ألم أقل لك إن مثل هذه التلميحات غير مسموحة شينان؟ علاقتي بالآنسة غرانت لا تعنيك.. إنها شأني الخاص!»

ـ يعنيني منها وقوفك إلى جانبها ضد أملك! آه ڤانس، ألا ترى كم ستعني لهم مؤازرتك ومساعدتك؟

لم ينظر ڤانس إليها، بل ركز على مساعدتها في المسير على الممر الشديد الانحدار.

ـ أنا إلى جانب القانون والنظام.. ولن أجر إلى مطلق عمل غير قانوني من أجل كسب شعبية الناس! هؤلاء الناس علماء في علم الأحياء معترف بهم، ومسموح لهم قانوناً فعل ما يفعلون!

ـ سرقة ما هو ملك لأهل بارستيوس! لماذا لا تفهم ڤانس؟ يريد القرويون إيقافها عند حدها.. لن يسمحوا لها بأخذ الدلفين الأبيض دون القيام بكل ما في وسعهم لإيقافها.. حتى ولو أدى ذلك إلى حرب!

تفرست فيها عيناه بسرعة، وضغطت أصابعه على ذراعها.

ـ ثمة وسائل لتحقيق الأمر بعيداً عن التهديد والوعيد. وإن كان باولو يطلق التهديدات فعليك أن تخطريني لأوقفه عند حده!

أدارت رأسها إليه وهي تشعر بالإحباط والعجز:

ـ أتظنني أفعل ذلك؟

هز رأسه بحزم: «عليك ذلك وإلا تأذى أحدهم، فليس الأمر بلعبة أطفال.. شينان، هذا أمر خطير، وقد يتحول إلى خطر كبير إن أخذ ساليس الأمور بيده.. ماذا يخطط له؟ أخبريني شينان!»

سحبت ذراعها منه، وقد برقت عيناها تحدياً.

ـ لا أدري! ولكنني ما كنت لأخبرك حتى لو كنت أعلم شيئاً! إن باولو على حق.. وأنت.. أنت مخبول بتلك المرأة الصهباء إلى درجة لا تكاد معها تهتم بشيء آخر.

أمسك ذراعها مجدداً، وهزها بقسوة قبل أن يديرها لتواجهه.. بدا لها أن من غير المعقول أن يكون هو من ضمها بين ذراعيه منذ دقائق قليلة.

قال لها: «أنت تتحدين صبري، فحذار التمادي كثيراً».

ـ لكن هذا صحيح.. أنت لن تفعل أو تقول شيئاً والسبب ترك الطريق مفتوحة أمام.. امرأتك!

ظنت للحظات أنه سيضربها. ولكن على الرغم من ثورته سيطر على أعصابه، فتجنبت عندها نظرته السوداء..

قال بصوت أجش: «هذا من صنيع ساليس.. إنه هو من يزجك في شؤون القرية ويملأ رأسك بالشائعات من «التاڤيرنا»!

ـ لا، لا علاقة للأمر بباولو! فأنا قادرة على رؤية الأمور. أنت تلومه دائماً على كل ما يقوله أو يفعله.

ـ لأنه يورطك في ما لاتفهمينه البتة. لا شأن لك بالقرية وشؤونها شينان.. اسمعي لن تقابلي ساليس مرة أخرى.. هل هذا مفهوم؟

ـ لا.. لا! ليس مفهوماً!

اشتدت قبضة يده على ذراعها، فحبست أنفاسها:

ـ شينان!.. إنه ليس لك.. أنت تضرينه أكثر مما تضرين نفسك. وإن لم تفعلي ما أقوله من أجل مصلحتك، فعلى الأقل فكري في مستقبل صديقك!

سألت وأنفاسها مقطوعة ووجهها متورد:

ـ أتعني أنني أفسد فرصته للزواج؟ لا تقلق على هذا الأمر ڤانس! فليس باولو بقلق مع أن من المفروض به أن يهتم!

ـ لا أظن ذلك لأن صديقك غير صادق. أتى الأب جورجيو لمقابلتي ويبدو أن كيريا ساليس تود لو يتزوج ابنها من فتاة من بلدة «ليفكينيس»، ولكنها قلقة بسبب علاقته بك.. سألني الأب جورجيو في البداية عما إذا كان يريد الزواج بك. لا أستغرب تساؤله هذا بعد تصرفاتك الأخيرة.

كان لصوته حد الفولاذ، فسارعت شينان تقول:

ـ لا.. أنا لم أتوقع هذا! لم يكن هناك شيء كهذا بيني وبين باولو.. ألا تفهم هذا؟

رد ببرود: «أفهم ذلك ولكنني لا أصدق حينما أرى طريقته في النظر إليك».

ذكر أمامها مرة الطريقة التي ينظر فيها باولو إليها، وتساءلت لماذا يراقبها في وقت لا تلاحظ هي فيه شيئاً..

قالت: «أنت لن تفهم أبداً».

هز ڤانس رأسه بنفاد صبر، وقال بصراحة:

ـ بل أفهم جيداً حينما ينظر رجل إلى امرأة برغبة.. عندما ينسى حذره، كان يترك لرغبته سبيلاً للبروز في عينيه.. لقد رأيت هذه النظرة أكثر من مرة في عيني باولو ساليس.. وهي نظرة بعيدة كل البعد عن نظرة الصديق إلى صديقة.

أحست شينان بدقات قلبها المتسارعة، فرفعت نظرها إلى ڤانس للحظة، ثم ارتدت عنه مرة أخرى وقفلت تعود أدراجها نحو المنزل.

قالت بوقاحة من فوق كتفها:

ـ إذن، ربما من الأفضل أن أتزوجه..!

سمعته يشتم بصوت منخفض بلغته.. ثم أمسك ذراعها مرة أخرى وسار إلى جانبها، وقال:

ـ صغيرتي! لن أسمح بذلك أبداً!

* * *

٨ ـ قلبي ليس لي

لم ترَ شينان باولو بضعة أيام رفضت خلالها الاعتراف حتى لنفسها بأن مرد ذلك تحريم ڤانس عليها رؤيته إذ لا يحق لڤانس منعها عن شيء.. ولكن ما أثار اضطرابها فعلاً هو سؤال الأب جورجيو عن علاقتها بباولو وقد دفعها سؤاله هذا للسعي إليه.

إن كان القس العجوز قد تحدث بصراحة مع ڤانس عن الأمر فهذا يعني أن شائعات كثيرة تدور بين القرويين، وهذا ما كرهته لأنها نمقت فكرة أن تكون موضوع أقاويل نساء القرية.

لم يلمح باولو حتى لقائهما في المرفأ إلى أنه يشعر بما هو أكثر من الصداقة تجاهها. ولكنها منذ ذلك الوقت أدركت أنه يمكن أن يضمر في نفسه أكثر من الصداقة وقد ساعد على ذلك حديث ڤانس عن الطريقة التي كان باولو ينظر فيها إليها وعندئذ لم تستطع إلا أن تذكر كيف التفت أصابعه بتملك حول ذراعها.

ربما كانت بلهاء قليلاً فيما يخص باولو.. ربما كان عليها أن تكون أكثر حذراً.. وربما جاءت نصيحة ڤانس في أوانها. ما دامت الشائعات قد وصلت مسامع قس البلدة فهذا يعني أن الأمر خطير ولولا ذلك لما تحدث العجوز مع ڤانس.

قبل حادثة إنقاذها وقبل تصميم ڤانس على إبعادها عن المرفأ، وقبضة باولو المتملكة لها، كانت بدون شك ستتجه إلى المرفأ سعياً

وراء باولو.. ولكنها اليوم اتخذت وجهة أخرى فقد سلكت ممراً صخرياً يتجه شمالاً ولكنها سرعان ما ندمت على تغيير الطريق.

كان الممر وعراً، حافلاً بالصخور، وقد ازداد وعورة كلما أوغلت فيه.. ولكنها بعدما بدأت وجدت نفسها ترفض العودة فكان أن بذلت المزيد من الطاقة، وعندما وصلت إلى الأعلى شعرت بأنها نالت مكافأتها فلا يمكن أن تجلس أبداً في مكان أجمل من هذا.

كانت الشمس دافئة، والبحر يشبه جوهرة كبيرة زرقاء ممزوجة بالذهب، والسماء زرقاء صافية. المنظر هادىء مسالم بمقدار ما يجب أن تكون مثل هذه المناظر..

سعت قدماها إلى آمن وأسهل الأماكن بين الصخور، ولكن السير كان صعباً، كادت تستسلم مرة أو مرتين ولكن لم يكن السبب وعورة الطريق فحسب بل انشغال فكرها.

عندما توقفت تحت فيء شجرة زيتون ملتوية قديمة، تذكرت أنه في مكان ما في هذا الاتجاه تقع الڤيلا التي تسكنها جويس غرانت وجماعتها.

إن آخر ما تريده هو رؤية جويس لذا قررت العودة قبل أن يراها أحد هنا فيسيء الظن في سبب وجودها على مقربة من ڤيلا جويس التي لا رغبة لها في مقابلتها.

ـ اوريستي! مرحباً!

عادت إلى واقعها بسرعة وفي ظنها أن شخصاً من سكان الڤيلا قد شاهدها.. مرت لحظات قبل أن تدرك أن الصوت قادم من جهة أخرى، فنظرت إلى الأسفل، تتمسك بالصخر أمامها. كانت التلة الصخرية محفورة قليلاً إلى الداخل، مشكّلة جوناً صغيراً.. وهناك في المياه العميقة شاهدت التشكوي الأحمر الصغير الذي يملكه باولو، محركه متوقف، والمركب متأرجح والحبل معقود إلى أحد

الصخور، وباولو واقف في المقدمة.

ردت تلوح بيدها: «مرحباً».

فاجأتها رؤيته بحيث لم تستطع أن تقرر ما إذا كانت مسرورة لرؤيته أو منزعجة، ولكنها لن تتمكن من التكبر عليه في هذه الظروف، خاصة وأنها تحس بالفضول بالنسبة لإشاعة زواجه. بالطبع الزواج من شاب يوناني وسيم نشط يعتبر صيداً ثميناً بالنسبة لأية فتاة يونانية.

وضع يديه حول فمه يسألها:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ ليس إلى مكان محدد.. ماذا تفعل هنا؟

ـ أراقب.

ظنت أن على قسمات وجهه الوسيمة ابتسامة ثم رأته يشير بيديه الاثنتين حتى تنزل إليه لكنها ترددت ليس بسبب مخاطر النزول والتسلق بل لأنها ما أتت إلى هذه الناحية إلا تفادياً لرؤيته. صاحت لبسمعها جيداً:

ـ لا.. لا أستطيع! الصخور منحدرة باولو!

صاح مصراً: «اسلكي هذه الطريق ذيسبيناس، فهي غير وعرة».

نظرت شينان إلى الأسفل فرأت ما بدا لها فسحة ما بين الاخضرار النامي وهذا يعني أن هناك طريقاً آمنة للوصول إلى الأسفل.

ـ تعالي!

شجّعها نداؤه الأخير فهزت كتفيها بلا مبالاة ثم تقدمت إلى حيث الفسحة القائمة بين الشجيرات الشائكة المتجهة نزولاً. ما إن وصلت إلى أول المنحدر حتى ترددت، فقد بدت لها كثيرة الانحدار.. في الأسفل كان البحر يقفز كالحيوان الجائع، فوق

الصخور الحادة. كان هناك ممر من نوع ما، لكن منظره لا يشجع أبداً.

وفيما كانت واقفة هناك مترددة راقبت باولو يقرب القارب الصغير بحيث أصبح تحتها مباشرة.. ثم لمّا ناداها مجدداً سحبت نفساً عميقاً، وبدأت النزول وجلة.. كانت تعرف أنها تقوم بعمل متهور، خاصة بعد جهدها الذي بذلته لتتجنبه.

وجدت أن تسمية هذا الطريق بالممر إجحاف بحق الممرات، ففيه مخاطر جمّة، من الصخور الناتئة إلى الحجارة الصغيرة التي تزحلقت تحت قدميها عدة مرات، مهددة إياها بالتدحرج إلى البحر.

لو استطاعت أن تغير رأيها وتعود من حيث أتت لفعلت، لكن تسلق هذه الصخور الرهيبة من جديد لأسوأ بكثير من متابعة الطريق نزولاً.. شعرت بالندم على طيشها، وأملت أن تصل سليمة.

أخيراً وجدت نفسها على مستوى مقدمة قارب باولو الذي يتأرجح برقة في مرساه، فأسندت ظهرها إلى الصخور خلفها ساحبة أنفاساً ثقيلة متسائلة لماذا بحق الله اقتنعت بالنزول إليه.

ـ ما أخبارك؟

رأت في عينيه لهفة صعب عليها معها ألا تبتسم رداً على سؤاله فما زال جزءاً من حياتها.

ـ بل فلنقل ما أخبارك أنت باولو؟ لماذا طلبت مني النزول إلى هنا وفي ذلك مخاطرة بدق عنقي؟

ـ أتسألينني الأخبار ذيسبيناس؟ ألم تسمعي؟

هزت شينان رأسها.. في عينيه ما يفضح انفعاله وعلى وجهه نظرة أطلقت نبضاتها سريعة، وجعلتها تتساءل عما يريد قوله..

ربما هي الأخبار التي سبق لڤانس أن قالها لها، ربما هي التي وضعت هذا البريق التواق في عينيه، ولونت وجنتيه السمراوين ببريق

الإثارة..

ـ أخبرني.. أرجوك باولو! ما الذي لم أسمعه؟

كانت ابتسامته منارة مضيئة وسط وجهه الأسمر، وكانت عيناه تبرقان وهو يشرح لها:

ـ كابيتان برونس اتصل بابن أخيه كما طلبت منه ذيسبيناس. ألا تذكرين أنك وضعت هذه الخطة؟

هزت رأسها.. بدا لها من غير المعقول أن أياماً أربعة مرت منذ وصل ڤانس بسيارته إلى المرفأ ليعيدها إلى المنزل، بعد أن توقع الجميع إيجادها ميتة غرقاً. في ذلك الوقت كان ڤانس غاضباً منها لأنها قفزت عن الصخور ولكنه كان سعيداً بسلامتها. لقد حدثت أمور كثيرة منذ ذلك الحين.

قالت: «أجل، أذكر بالطبع. ماذا حدث باولو؟ هل فعل القبطان برونس شيئاً؟»

ـ بكل تأكيد ذيسبيناس.. والخبر منشور في صحيفة مهمة في أميركا! الآن ليس اليونانيون وحدهم يعرفون أن هؤلاء يحاولون سرقة تعويذتنا منا! أليس هذا خبراً عظيماً ذيسبيناس؟

أحست بوخز غريب عندما فكرت في ما قد يقوله ڤانس حين يعرف.. لكنها قالت: «خبر رائع».

ـ هذا أكثر مما كان يمكننا القيام به وحدنا.. ونحن مدينون لك ذيسبيناس وسنظل مدينين لك.

قالت بسرعة: «لكنكم لستم مدينون لي.. كانت الفكرة فكرتي فقط، أما الفعل ففعل القبطان برونس وابن أخيه».

هزت رأسها بحيرة.. لقد نسيت أنها وضعت هذه الفكرة في رأس القبطان، وتتمنى الآن لو كانت الفكرة فكرته وحده لأنها لا تريد أن تكون متورطة، قالت وهي تضحك بشيء من التوتر:

ـ لا أصدق. لا شك في أن ابن أخ القبطان قد عمل جاهداً للحصول على رد الفعل هذا في وقت قصير.

رفع باولو كتفيه وابتسم:

ـ ديمتريوس برونس شخص مهم في «أميركا» وهو ذو نفوذ كبير.

لم يكن خائفاً من استخدام نفوذه من أجل أهل قريته. أحست شينان بالمرارة لأن ڤانس وقف مكتوف اليدين، رافضاً مساعدة أهله مع أنه طالبهم بمساعدتهم وقدموا له هذه المساعدة.

كان باولو واقفاً على سطح قاربه وقدماه منفرجتان، ورأسه الوسيم مرتد إلى الوراء، ينظر إليها من بين أهدابه السوداء.. كان وسيماً بشكل لا يصدق.

ربما السبب هو ما قاله لها ڤانس فهي الآن تراه على ضوء مختلف. أحست فجأة أنها خجولة منه، وهذا ما لم تختبره من قبل عندما تكون برفقته. تجنبت عينيه السوداوين المحدقتين إليها وشعرت بأنها غير واثقة مما يدور في رأسه وغير واثقة أيضاً كيف تتصرف خاصة بعدما عرفت بخطط أمه لتزويجه.. خطط لم يذكرها لها من قبل، بالرغم من قوة صداقتهما.

سألها: «ألم تعرفي شيئاً عن هذا؟»

انتزعت نفسها بسرعة من أفكارها وعادت إلى واقعها تهز رأسها.

ـ لا، لم أعرف شيئاً.

ابتسم باولو مرة أخرى، وبدا واضحاً لها أن هذه المرحلة في علاقتهما تروقه بحيث لم تستطع سوى التساؤل عمن يكرهه أكثر ڤانس أم جويس غرانت؟

قال لها: «ثمة إشاعات تقول إن «الأميركانوس» أُمروا بالرحيل!»

ـ الرحيل؟

نظرت إليه بإمعان ثم أردفت:

ـ باولو.. هل أنت واثق من هذا؟

بدا واضحاً أن الإشاعة مؤكدة وبدلاً من الرد مد لها يده: «تعالي».

ولكن شينان هزت رأسها.. فارتفع حاجبه الأسود متسائلاً عن سبب رفضها، ونظر إليها مستغرباً:

ـ ما بالك؟ لم أرك منذ يومين وها أنت ترفضين الصعود إلى قاربي!

ـ لأنني لم أصعد إلى قاربك من قبل.

ابتسم باولو وهز كتفيه: «إذن.. لماذا لا تصعدين الآن؟ ألا تثقين بي ذيسبيناس شينان؟»

إنها المرة الأولى التي يستخدم فيها اسمها الأول. أحست بانقباض في معدتها وعندما نظرت إليه وجدت عينيه تتحديانها.. ليت ڤانس والأب جريجوري لم يضعا تلك الأفكار المثيرة للاضطراب في رأسها فلولا تلك الأفكار لقبلت وكان الأمر طبيعي في علاقتهما. ولكنها الآن غدت غير قادرة على النظر إليه على أنه صديق فقط، وندمت على هذا.. وكأنها علامة فاصلة بينها وبين الطفولة.

ـ بالطبع أثق بك باولو.

ألقت نظرة إلى الوراء فلاحظ باولو نظرتها تلك وعندئذ ارتسم طيف ابتسامة على وجهه فقد لاحظ توترها، وفهم سببه.

ـ لا تخافي ذيسبيناس.. لن يرانا كيريوس أورميروس الآن.

ـ لست قلقة بسبب ڤانس!

ولكن باولو لم يقتنع، فأخذ يهز رأسه ببطء وهذا ما أقلقها بدون شك.

ـ لا أظن ما تقولينه صحيحاً ذيسبيناس.. فمنذ أربعة أيام..

ولم يتم جملته، لكن حركة شفتيه وأصابعه كانت كافية لإيصال المعنى لها. أحست بطوفان الدم الأحمر يصبغ وجنتيها.. من الواضح أن ماريكا لم تقاوم هذه القطعة من القيل والقال، وبهذا عرف باولو بما جرى بينها وبين ڤانس.

قالت، وكأن الأمر أمر واقع: «لقد عانقني ڤانس، إذا كان هذا ما تقصد.. ولكنه من العائلة باولو! ألا تعانق ابنة عمك؟»

رد بحزم: «ليس بالطريقة ذاتها».

تساءلت كم بالغت ماريكا بثرثرتها، وسألت: «وهل من اعتراض؟»

هز كتفيه يوضح أن الفكرة لا تعجبه مع أنه لم يقل شيئاً فتابعت:

ـ باولو.. لقد سمعت.. سمعت أنك مقدم على الزواج.

ضاقت عيناه بشكل دلَّ بوضوح على كرهه لهذا الموضوع:

ـ ثمة خطط.. ذيسبيناس شينان.

لم يكن تصرفه مشجعاً، مع أنه استخدم اسمها الأول مجدداً، في كلامه شيء ما لم تستطع وضع إصبعها عليه وهذا الشيء أزعجها بشكل غريب..

ـ أتمنى أن تكون سعيداً.

تساءلت لماذا بدت التهنئة العاطفية القديمة العهد تافهة..

هز باولو كتفيه.

ـ لم أعرف ما إذا كان علي أن أصدق الخبر أم أكذبه، فلم يحدث أن أخبرتني شيئاً.

سألها وعيناه السوداوان تفتشان وجهها بحدة زادت من قلقها: «هل لديك اعتراض؟»

حاولت إيجاد الكلمات المناسبة لتوصل ما تشعر به:

ـ أنا أريد لك السعادة.. ولكن زواجك سيشكل فرقاً بالطبع.

ـ فرقاً؟

كان يعرف ما تعنيه الكلمة، ومع ذلك حاول التلاعب بالكلمات، فقالت:

ـ لصداقتنا.

التقطت نظرته السوداء عينيها لحظة، وكأنه يسعى إلى قراءة ما في قلبها.. وسأل: «ألا ترغبين في الاستمرار بصداقتنا؟»

نظرت إليه بلهفة:

ـ آه!.. باولو.. بالطبع أرغب! ولكن لزواجك تأثير في الأمور.. عليك أن تفهم الأمر! أعتقد أنني تسرعت في مصادقتك إلى هذه الدرجة. أعرف أن ڤانس ليس الوحيد الذي يعتقد هذا.. ولكننا كنا صديقين مخلصين، أليس كذلك باولو؟

نظر إليها نظرة صعب معها معرفة ما يجري وراء هاتين العينين السوداوين.. ثم فجأة مد يديه إليها ثانية:

ـ ذيسبيناس.. أرجوك.. أريد أن أكلمك عن قرب.

ترددت شينان لحظة، ولكن بما أن باولو صديق طيب فقد صعب عليها رفض مطلبه.. أمسكت يديه الممدودتين وخطت إلى القارب متمسكة به بشدة حتى توقف تأرجح القارب.

ـ من أخبرك بهذا الزواج؟

ـ ڤانس.. لقد قابله الأب جورجيو وقال له إن في سمائك فتاة..

اعترف بوقار وحزن: «نعم ثمة فتاة، ولكن الاختيار هو اختيار أمي والأب جورجيو أما أنا فلم أختر أحداً ذيسبيناس شينان».

ـ آه! هكذا إذن.

لم تعرف بما تجيب ولم تعرف ما ينوي فعله..

- لا يعجبهما ما يريان وما تقوله عيونهما عما يحدث.. إنها الطريقة ذاتها التي لا تعجب كيريوس أورميروس.. أتفهمين قصدي؟

هزت شينان رأسها.. هي الآن واثقة من كيفية سير الأمور.. ويبدو أنها لا تستطيع فعل شيء إزائها.. شعرت بأنها عالقة في فخ وأنها غير قادرة على الخلاص من موقف وقع بسبب فعل طائش من صنيعها هي، ألا وهو نزولها لرؤية باولو..

عضت شفتها بلهفة وحاولت أن يكون صوتها ثابتاً: «باولو..»

لكن باولو كان قد ترك جانبها ووقف قبالتها ويداه القويتان على ذراعيها العاريتين، ووجهه الوسيم على بعد إنشات منها:

- شينان!

لم يكن في ندائه رسميات «ذيسبيناس» بل ناداها باسمها عارياً من الألقاب وبصوت منخفض وكأنه دعاء. لو كانت في ظروف أخرى لوجدت لطفه المفاجيء مؤثراً، لا يقاوم.. ولكنها لم تكن لتتصور أن الموقف قد يتطور إلى هذه المرحلة لذا خفق قلبها لحظة بذعر..!

أمسكها بقوة. كانت نواياه واضحة.. ولكن عندما أحنى رأسه وضعت يديها على صدره مذعورة من ذكرى عناق ڤانس الحي الملهوف. ما إن لامسها حتى بدر عنها رد فعل مفاجيء فارتدت إلى الوراء متخذة جانب القارب الآخر مكاناً للوقوف.

لم يقل باولو شيئاً ولكن يديه انقبضتا وكأنه أصيب بجرح وعينيه اشتعلتا غضباً ثم ما لبث أن أحنى رأسه انحناءة غريبة، والتوى فمه بقسوة.

- أفهم.. بالطبع.. ذيسبيناس.. أعتذر على غلطتي!

لم تعرف ما تقوله أو تفعله، فلا مجال للهرب هنا ولا مجال

لارتقاء هذه الصخور المخيفة.

تمسكت بجانب القارب وهي تشعر بأنها مدينة له بتقديم تفسير أو اعتذار فقد ظنها أكثر من راغبة للتجاوب مع تودده ويبدو أنها قادته إلى هذا الاستنتاج.

- باولو.. أنا آسفة.. أعني، إنني آسفة لأنني أوحيت إليك بما لا أشعر به.. لم أقصد هذا.. و..

قاطعها بخشونة:

- ماي..! لا تعتذري ذيسبيناس.. فلا رغبة لي في إحراجك أو في شفقتك.

- باولو! أرجوك لا تقل هذا!

بكت دون أن تعرف السبب.. لو كانت فتاة أخرى في هذا الوضع لغضبت ولكنها تعرف باولو منذ مدة طويلة لا تستطيع معها الغضب بسبب سوء تفاهم.. جعلها الإحساس بالسخط والإحباط تبكي وعندئذ تمنت لو تستطيع التحكم في مشاعرها.

وقف باولو ينظر إليها صامتاً، ثم مد يده يلمس خدها بطرف إصبعه، وقال بعذوبة:

- شينان.. أنا آسف أيضاً.. لم أرغب في إبكائك.

نظرت إليه من بين دموعها، كانت تعرف ماذا سيحدث ولكن لم يكن بيدها حيلة إذ ما هي إلا لحظة حتى كانت بين ذراعيه.. كان رقيقاً لطيفاً وكأنه يخاف من ردة فعلها، ثم اشتدت ذراعاه أكثر فأكثر. لم تفعل شيئاً، بل أغمضت عينيها، وتذكرت مجدداً قوة ذراعي ڤانس.

لا شك أن عدم تجاوبها خيب أمله ولكنه لم يقل شيئاً بل عبس وقال:

- سأعيدك إلى المنزل، لا يمكنك تسلق «فيراهوس» بمفردك.

رفعت بصرها إليه، محاولة إيجاد كلمات مناسبة، ولكن لم تجد ما تعبر به عن مشاعرها في تلك اللحظات:

- باولو.. شكراً لك.

ابتسم ابتسامة سريعة، ثم استدار ليدير المحرك الصغير.. كانت حركة المركب رتيبة فأخذت تراقب الذيل الأبيض الذي كان يتركه القارب وراءه على المياه العميقة الزرقاء..

قبل أن يتوجه ناحية المنزل، قاد القارب إلى آخر الجون ثم دار في قوس واسع. التفتت شينان عندما لامسها مرفقه وهو يعيد القارب إلى مساره ثانية..

في مكان بعيد بدت لها ڤيلا بيضاء، مكشوفة للطبيعة أكثر من ڤيلا «إيستشبا»، وسط حديقة تحيطها أشجار السرو.. وما كانت لتعطيها أكثر من نظرة لولا إشارة باولو إلى سيارة متوقفة أمامها، حبست أنفاسها عندما عرفت السيارة ليس فحسب بل الشخصين الواقفين قربها.

كان الجو نقياً، والصورة واضحة. فذاك الطويل الأسمر هو ڤانس وتلك الصهباء هي جويس التي كانت تنظر إليه وعلى وجهها تعبير يصعب معرفته، ولكن شينان لم تجد صعوبة في تصور تلك البسمة الواثقة الراضية على وجه جويس غرانت..

وارتدت بعيداً والدموع تعود للتدفق مرة أخرى.

امتدت يد باولو وأمسكت بيدها:

- شينان.. كان عليَّ أن أعرف.. أنا آسف.

ولم تحتج شينان إلى السؤال:

- لا يهم.. اصحبني إلى المنزل.. باولو.

لم تجرؤ على النظر إليه لئلا تلمح الشخصين الواقفين خارج الڤيلا.. رفعت رأسها إلى الوراء تاركة للريح الدافئة الثلاعب بشعرها.

* * *

منتديات ليلاس الثقافية

٩ ـ المخادع

عندما سمعت شينان هدير سيارة ڤانس الذي وصل كانت تلج إلى الحديقة من الممر الصخري. أدركت أن تجنبه مستحيل، مع أنها تفضل ألا تواجهه في هذه اللحظات، خاصة وذكرى المشهد الذي رأته ما زال حياً في ذهنها.

آلمتها رؤية ڤانس مع جويس وشعرت بالمرارة لأنها فكرت في أنه يستمتع بصحبة حمراء الشعر التي تكرهها كثيراً.. ولكنها مع ذلك رسمت ابتسامة على وجهها، ففي اليومين الماضيين كانت الأمور بينهما سهلة وهي الآن لا ترغب في تكدير الوضع.

فيما كان يتقدم إليها أدركت كم تغيرت الأمور مؤخراً.. شعرت بالسخط على ضعفها. إنها تلاحظ كل شيء في ڤانس: مشيته، وقفته، الخطوط الدقيقة حول عينيه السوداوين.. العينان اللتان تلمعان أحياناً بالغضب وأحياناً تبرقان دفئاً ووداً كحالهما الآن.

لا فائدة من الادعاء بأنها لا تعرف ما يحدث ولكن الوقوع في حب ڤانس لن يجلب لها السعادة خاصة وهو مهتم بمفاتن الصهباء الأنضج منها.

بدا طويلاً أسمراً جذاباً يرتدي الآن سروالاً رمادياً وقميصاً أبيض، مفتوح الياقة بحيث تظهر عنقه السمراء القوية. رفع يده يحييها ثم تقدم برشاقة ولكن ما إن اقترب حتى أحست بتوتر محدد

في ابتسامته، وتساءلت عن السبب.

ردت على تحيته بالتلويح بيدها ثم همت بمتابعة السير إلى الداخل ولكنه حثَّ خطواته الأخيرة حتى أصبح إلى جانبها ثم مد يده بعيدها إلى تحت ظلال الشرفة المسقوفة.. التفت الأصابع القوية فوق الذراع العارية فحبست أنفاسها ونظرت إليه بدهشة خافقة القلب بجنون.

ـ أين كنت؟ بحثت عنك قبل أن أخرج، ولكن ماريكا قالت إنك خرجت.

ـ هذا صحيح.. خرجت أتمشى.

ـ باكراً هكذا؟

اشتدت يده على ذراعها فأطلقت ذبذبات دافئة في كيانها. حاولت التفكير في سبب رغبته الظاهرة في محادثتها على حدى.

عبق أريج الليمون والبرتقال واللوز حولهما، فحرك مشاعرها التي استجابت إلى خليط من مشاعر جديدة، كانت مذهلة في حدتها.. ليتها لم تره مع جويس غرانت، لأنها كانت ستقبل عندئذ الوضع الجديد وتستمتع به.

قالت له: «خرجت بعد الفطور تقريباً.. سرت في الاتجاه الآخر كنوع من التغيير هذا الصباح».

ولم تستطع منع نفسها من النظر إليه ترقباً لردة فعله.. ولكنه هز رأسه، وكأنما يفكر في أشياء أخرى وتساءلت عما إذا كان يهمه أن يعرف أنها شاهدته مع جويس غرانت..

سألته: «هل بحثت عني لسبب ما معين؟»

شعرت أن في عينيه دفئاً فخفق قلبها بجنون مجدداً..

ابتسم: «لدي أخبار لك».

حبست أنفاسها ترقباً.. إذا كانت الأخبار تتعلق به وبجويس،

فهي لا تريد أن تسمعها.. وإذا كانت أخباره كأخبار باولو، فلن تستطيع أن تتمنى له السعادة.. ارتجفت كورقة في مهب الريح ثم سألته بصوت ضعيف.

ـ أخبار؟

نظر إليها ڤانس مستغرباً حائراً من ردة فعلها، وقال لها:

ـ أخبار عن «تو آسبيرو إينا» يا صغيرتي.. أريد أن أقول إن لا حاجة لإزعاج نفسك بشأن المخلوق الأبيض. إنه بأمان!

ـ آه!.. ڤانس!

عبَّر ردها الهامس عن عدة مشاعر.. فقد أحست براحة شديدة لأن الدلفين الأبيض ابتعد عن الخطر ولأنه لم يكن لما أخبرها به طابع شخصي، ولكنها تساءلت كيف عرف أن حملتهم قد نجحت..

سألها وكأن ردة فعلها خيبت أمله: «هل أنت سعيدة؟»

ـ آه.. بالطبع سعيدة.. أكاد أطير فرحاً!

لم تتوقع منه تقبل وصول القصة إلى الصحف الأميركية بهدوء. بل توقعت منه الغضب، لأن جويس غرانت تبدو أمام العالم بصورة غير محببة، ولكنه بدا هادئاً وهذا ما يحيرها.

نظرت إليه تبحث في وجهه عن تفسير، فضحكت متوترة:

ـ لا أرى كيف يمكنك الوثوق من النجاح، ولا أفهم كيف عرفت بالأمر في وقت قريب.. أخبرني باولو بهذا هذا الصباح فقط، وظننت بل توقعت أن..

تلاشى صوتها عندما رأت نظراته القاسية:

ـ عمَّ تتحدثين شينان؟

عضت شفتها بقلب خافق، لقد أدركت لتوها فقط كم كانت مخطئة.. فڤانس لا يعرف شيئاً عن جهود القبطان العجوز مع ابن أخيه، أو عن القصة التي وصلت بناء على اقتراحاتها إلى أميركا..

إن مصدر أخباره مختلف.

قالت: «أتحدّث عن الدلفين».

لكن قبضته اشتدت حتى جعلتها تشهق بصوت مرتفع.

قال بصوت أجوف «أنت تتكلمين عن جويس غرانت.. لا تكذبي شينان.. لقد قابلته مجدداً.. لقد اتخذت الاتجاه الآخر بغية مقابلته.. أنت أكثر خداعاً مما ظننت يا ابنة عمي الصغيرة.. لقد خيبت أملي!»

هزت رأسها بلهفة: «آه ڤانس! لقد التقيته هذا الصباح للمرة الأولى منذ ثلاثة أيام. قصدت الاتجاه المعاكس لأتجنب رؤيته ولكنه شاهدني على الصخور».

ضاقت عينا ڤانس فظنت أنه صدقها.

سألها: «كان يراقبك؟»

أدركت للمرة الأولى أن هذا بالضبط ما كان يفعله باولو، ولكنها لم تدرك الأمر قبل الآن، قالت مترددة في الاعتراف:

ـ لا أدري.. كان في قاربه، ونزلت لأتحدث إليه لأنه قال لي إن لديه أخباراً لي.

أدارها لتواجهه، كانت عيناه قاتمتين فاقدتي الصبر.

ـ نزلت تلك الصخور لتحدثيه؟ ألم تفكري في الخطر المحدق؟

أشعرتها لهفته الواضحة بالرضى فقالت:

ـ كان النزول صعباً في البداية، ولكنني تمكنت من اجتيازه أما العودة فكانت على قارب باولو.

ـ وجدت أخيراً على الأقل بعض التعقل؟ ولكن كيف استطاع ساليس أن يخبرك بأمر التعديل.. كيف عرف؟

ـ أمر التعديل؟

هزها ڤانس قليلاً وحاجباه معقودان بنفاد صبر.

ـ لا تسألي بل أجيبي فقط، كوبيلامو! ما هي الأخبار التي ذكرها لك باولو ساليس؟

ـ حدثني عن الصحف.. الصحف الأميركية التي نشرت قصة الدلفين الأبيض.. ليست صحيفة واحدة فقط بل عدة صحف!

رفع ڤانس رأسه يدعو ربه مجدداً ثم نظر إليها بعينين مذهولتين، يهز رأسه:

ـ وهل تعلم الصحافة الأميركية بهذا الأمر؟

هزت رأسها: «ڤانس..»

أضاف بدون أن يمهلها فرصة للكلام:

ـ إذن، أخذ ساليس الأمر بين يديه!.. لكن ما لا أفهمه كيف حقق ذلك ومصادره المالية ضعيفة؟

ـ ڤانس.. لم يكن باولو..! كانت.. فكرتي!

بدا عليه عدم التصديق: «أنت؟»

ـ للقبطان برونس ابن أخ يعمل في وكالة أنباء أميركية هامة.. وقد أقنعته بالاتصال به.

قال وهو يهز رأسه علامة عدم التصديق:

ـ أيتها البلهاء الصغيرة.. ألم تدركي أن أزمة عالمية قد تحدث بسبب قلة صبرك وعدم قدرتك على الانتظار لإنقاذ دلفينك الثمين؟

نظرت إليه مويخة: «ولكنك لم تحرّك ساكناً! تركت تلك المرأة تعميك عن.. عن كل شيء!»

صاح بها آمراً بحدة:

ـ كفى! ألم أقل لك إن الدلفين الأبيض سالم؟

سحبت نفساً مضطرباً واستعدت نفسياً للاقتناع بأنها مخطئة نحوه.. ثم هزت رأسها ببطء وهي تكاد تصاب بالصمم من شدة خفقان قلبها..

همست: «ولكن كيف تعرف؟»

ـ لأن هناك طرقاً صحيحة لفعل هذه الأشياء ليغو إينا.. وهذه الطريقة هي الطريقة القانونية التي تستغرق ربما وقتاً أطول، لكنها مؤكدة وأقل خطراً.. لقد اتخذت هذه الطريقة.

ـ ولكنك لم تخبرني؟

في صوتها تأنيب وفي عينيها الكبيرتين الزرقاوين عتاب.. ابتسم ڤانس ابتسامة هازئة:

ـ لماذا؟ لتخبري باولو ساليس؟ لم أشأ أن يفسد خططي أحد أصدقائك المتحمسين «ليوإينامو». أفضل أن يكرهني الناس على أن يفتضح ما أنوي فعله.

أحبت شينان وصفه اليوناني لها «يا صغيرتي» ولكنها كانت مذهولة بما تسمع للحظات فلم تدرِ ما تفكر فيه. لقد أعطاها وقوفه إلى جانبها طوال الوقت إحساساً بالدفء والإثارة.

اقشعر جسمها واختلطت مشاعرها ودار رأسها.

ـ كان هدفي إنقاذ دلفينك الغالي من الأسر.. وماذا بعد هذا صغيرتي؟ صحيح أن لدي نفوذي ولكن الأمور الرسمية لا تتحرك بسرعة، ولم يكن لدي وقت كبير. اتصلت بصديق يستطيع المساعدة، وانتظرت القرار.. بالأمس تم تعديل الإذن بالسماح للآنسة غرانت وفريقها بالتقاط العينات الغريبة من الحيوانات البرية في هذه المياه، ليستثني «توأسبيرو إينا».. ووصلها التعديل هذا الصباح.

رفعت بصرها إليه وعيناها براقتان لمعرفتها أنه المسؤول عن إنقاذ الدلفين.

ـ آه! ڤانس!

لكنها ما زالت حائرة فقد تذكرت تودده الظاهر لجويس غرانت،

ورأته يزورها هذا الصباح.. فسألته.

- وهل ذهبت لمقابلتها صباحاً لهذا السبب؟

نظر إليها رافعاً أحد حاجبيه: «أتعرفين أنني قابلتها هذا الصباح؟»

ترددت قبل أن تجيب:

- عندما عدت مع باولو في «التيشكوي».. رأيتك معها.

- هكذا إذن!

لم يكن في صوته اهتمام فنظرت شينان إليه بلهفة من تحت أهدابها. ثمة أمور كثيرة تود معرفتها، أمور كثيرة أقلقتها في الأيام الأخيرة.. ولكنها لم تستطع إجبار نفسها على طرح الأسئلة التي تدور في خلدها.

سألته: «وهل كانت غاضبة جداً؟».

رفع حاجبيه ليعبر عن دهشته لهذا السؤال:

- بالطبع كانت غاضبة.. ولكنني لم أذهب إليها لأشمت شينان. أعرف أن التقاط الدلفين الأبيض يعني الكثير لها.

- أتعجبك؟

بدا سؤالها بطريقة ما اتهاماً، فارتفع حاجباه مرة أخرى بإشفاق، وقال لها بصراحة أذهلتها:

- ربما تعجبني كما يعجبك باولو ساليس.. أنا ما أحببتها أو دفعتها يوماً للافتراض بأنني أحبها أو سأحبها يوماً.

توقف عن السير وأدارها لتواجهه. كانت عيناه السوداوان عميقتين لا قرار لهما ولكن فيهما رقة دفعت قلبها إلى الخفقان بجنون خاصة عندما التفّت أصابعه على ذراعيها.

سألها: «وهل تعتقدين العكس؟»

صعب عليها النظر إلى عينيه ولكنها اعترفت:

- أنا.. لم أعرف ما أعتقد أو أصدق.. ظننتك منجذباً إليها وكان باولو واثقاً من إعجابك بها.

- باولو! أنت تصغين دوماً إلى باولو ساليس شينان.. أليس كذلك؟ ليتك غير مقربة منه فلولا علاقتك به لأخبرتك بما كنت أقوم به من أجل الدلفين الأبيض.

- لكن، ألم تكن واثقاً بي؟ كان عليك ذلك ڤانس.. فلو طلبت مني عدم قول شيء أمام أحد لامتنعت عن ذكر كلمة أمام أي مخلوق.

كانت ابتسامته لطيفة ولكن فيها عدم تصديق:

- لا أظن هذا «ليوإينامو».. أنت مقربة منه كثيراً.

ردت آسفة: «لم أعد مقربة منه. حدثت باولو.. عن زواجه، و.. وفهم أخيراً».

نظر إليها ڤانس بثبات وبحنان تقريباً، وكأنما يعرف ما يعني هذا لها..

سألها: «أهذا ما تكلمتما عنه هذا الصباح؟»

- معظم الوقت.. أجل.

- لن تريه بعد اليوم؟

هزت رأسها نفياً.. مع أنها كانت تتساءل كيف لها ألا تراه ثانية.

قال ڤانس موافقاً: «كالو»!

سألته بأنفاس مقطوعة: «وأنت؟ هل ستقابل الآنسة غرانت ثانية؟»

أذهلها أنه لم يغضب ولكن حاجبه الأسود ارتفع، وكأن السؤال أدهشه.. وقال لها:

- لا «ليوإينا» لن أقابلها.. أعتقد أن الآنسة غرانت والسيد

فيغرمان وسائر مجموعتهما، راحلون خلال يومين.. لا أظنهم باقين بعد فقدانهم فرصة اصطياد الدلفين الأبيض.

لم تنظر شينان إليه وهي تسأل سؤالها: «ستشتاق إليها..»

امتنع عن الرد مدة عدة ثوانٍ حتى أحست بالبرد في داخلها.. لقد قال إنه لا يحب الآنسة غرانت ولن يحبها يوماً ولكن يجب أن تقنع نفسها بهذا..

أخيراً قال:

ـ ما زلت تشكين في كلامي؟ لا تصدقين أنني لم أحب قطّ جويس غرانت؟

ـ لا أدري.

كان صوتها مضطرباً. رفع لها ذقنها بأصبع واحدة ونظر إلى وجهها. كانت عيناه تبحثان في قسماتها، وتستقران على ثغرها بطريقة أشعلت مشاعرها مجدداً. أحست أنها مقطوعة الأنفاس، وكأنها على مشارف شيء جديد مثير، شيء لا يستطيع بعثه سوى ڤانس.

سألها بهدوء: «ولماذا برأيك لم يتمّ اصطياد الدلفين حتى الآن؟»

حدقت إليه، مذهولة حائرة لسؤاله:

ـ لأنهم لم يستطيعوا اصطياده.

أصدر صوتاً ملؤه نفاد الصبر.. اشتدت أصابعه على ذقنها وهز رأسه قائلاً:

ـ كان بإمكانهم اصطياده مئات المرات.. فبالمعدات التي يملكون كانوا قادرين على اصطياده قبل أن يتحرك نظام إنذار أصدقائك القرويين.

ـ إذن.. لماذا لم يصطادوه؟

لوت ابتسامة صغيرة ساخرة فمه الواسع، ثم أدارها وتابع سيره معها، وأصابعه تداعب ذراعها:

ـ قد تقولين إنني بدون ضمير يا صغيرتي.. ولكن لم يكن لدي وقت والإجراءات القانونية قد تتأخر، واحتجت إلى الوقت.

عبست مستغربة فضمها إليه لحظة وهز رأسه:

ـ أوضحت الآنسة غرانت منذ البداية أنها تجدني جذاباً، وكنت عديم الضمير لأنني استغليت هذا الواقع.

وجدت شينان صعوبة بالتصديق.. أن يعترف ڤانس الذي طالما كان صارماً بالنسبة لهذه الأمور، بأنه تلاعب بمشاعر الآنسة غرانت من أجل مصلحته لأمر صعب عليه.

سألت: «وهل.. خدعتها؟ ولكن فلنفترض أنها حقاً..»

هز رأسه: «أنها وقعت في حبي؟».

بدا واثقاً بحيث تعجبت من ثقته بنفسه، وقال:

ـ لا تقع نساء كجويس غرانت في أمثالي ليوإينامو.. إنهن نوع جديد من النساء، لا يعجبهن طريقة حياتنا ولكنهن يجدن أمثالي تحدياً لهن، وهذا ما شعرت به الآنسة غرانت تجاهي. لقد خدمت هدفي بلعب لعبتها فترة.

أحست شينان بانقطاع أنفاسها لأنها اكتشفت هذا الجانب الجديد القاسي في شخصيته. نظرت إليه بعينين متسعتين:

ـ أردت أن تبقى هنا أكبر وقت ممكن حتى يتم التعديل؟

صعب عليها أن تدرك أنه ابن العم البعيد الذي كرهته مدة طويلة.. هو الآن بالنسبة إليها ڤانس الرجل الذي تحبه أكثر من أي إنسان في العالم، وهي تحبه سواء أكان ظالماً أم عادلاً. كانت القضية التي دافع عنها قضيتها وهي عاجزة عن لومه لأنه استخدم كل الوسائل المتاحة له بما فيها وسيلة جذب جويس غرانت إليه.

نظرت إليه من بين أهدابها الكثة: «ما أشدّ سروري لأنني لست جويس غرانت».

قال بعذوبة: «وأنا كذلك «إيروس مو».

تورد وجهها بشدة بسبب كلمة التحبب التي استخدمها.. أوقفها مرة أخرى تحت ظل شجرة الدلب حيث راحت أصابعه تلمس بلطف وجنتها.

ـ هل شعرت بالخجل لأنني دعوتك حبيبتي؟

ـ ڤانس!

ـ كم من الوقت عليّ الانتظار حتى تنسي باولو ساليس؟

حبست أنفاسها.. إنه ينظر إليها بوجه جاد وبتركيز عميق يشعر به. أدارت كفيها لتلمس قميصه الأبيض، كان قلبها خافقاً بقوة كاد معها قلبها يتوقف عن الخفقان أو يخرج من بين جنباتها. بدت يداه دافئتين قويتين تمسكانها وكأنه يمتلك قوة تجبره.. قوة تحرق كيانه وكأنها نار لا تنطفىء.

ـ شينان!

لم تلن ذراعاه حتى تمتمت اسمه، ورفعت له رأسها ثم رفعت ذراعيها حول عنقه مستقبلة عناقه الذي كان فيه شغف شديد أزال كل شكوكها.

كان صوته العميق الأجش يهمس لها باليونانية، كلمات حب لم تسمع بمثلها من قبل.. وكان عناقه قاطعاً للأنفاس أكثر بكثير مما كانت تحلم به. حينما رفعت بصرها إليه أخيراً، كان في عينيها الزرقاوين البارقتين، نظرة اطمئنان.

ضمها بقوة، ويداه تدلكان كتفيها بلطف، فابتسمت له وقالت ببساطة:

ـ أحبك!

قال بصوت خفيض: «هل أنت متأكدة؟ لأنني لن أتركك تبتعدين عني لحظة بعدما تصبحين لي».

قالت هامسة: «نعم متأكدة».

وضعت رأسها على صدره، تصغي إلى نبضات قلبه القوية الثابتة. أما هو فقد استراح رأسه على شعرها وفمه على جبهتها.. ثم رفع رأسه فجأة ينظر إلى بحر إيجه الأزرق العميق البرّاق وقال:

ـ دلفينك.. ايروس مو.. انظري!

رفعت رأسها، ثم أمسكت بيده تجره إلى ممر الصخور، لتقف حيث طالما وقفت لمراقبة الدلافين، أمسكت يده بقوة، ورفعت يدها لتحجب أشعة الشمس عن عينيها ثم راحت تراقب الرذاذ الأبيض يرتفع كأنه قوس قزح، ثم يختفي مع عودة الأجسام المصقولة إلى بيئتها الطبيعية.

ـ هناك!

أشارت بإثارة مفاجئة إلى جسم توآسبرو إينا الخفيف الذي كان يقفز، ثم يعود وسط هالة من المياه لينضم إلى رفاقه، استطاعت لأول مرة أن تفهم ما شعرت به جويس غرانت بالنسبة لخسارة هذه الثروة، وتعلقت بيد ڤانس بقوة، وسألته:

ـ أما زلت لا تصدق أنه يجلب لنا الحظ؟

ابتسم لها ثم أحنى رأسه ليلثم رأسها:

ـ وكيف أشك في هذا حبيبتي؟ أحسست أنك لن تسامحيني أبداً لأنني لم أدعم أصدقاءك في كفاحهم.

اعترفت بصراحة الآن إذ لم يعد بينهما أسرار..

ـ لقد تألمت.. وتألمت أكثر لأنني أحبك فقد ظننتك مهتماً بجويس غرانت. آه ڤانس لا يعرف أهل بارستيوس أن الدلفين الأبيض أصبح في أمان.. يجب أن أخبرهم!

- عن طريق باولو ساليس؟ لا.. حبي.. سأخبرهم بنفسي ولكني سأزف مع هذا الخبر نبأ زواجنا.

استدارت نحوه وهي تشعر بخجل غريب فانحنى يعانقها ثانية.

ابتسمت وأدارت وجهها إلى ناحية واحدة تسأل:

- آه! وهل تقصد أنك تريد الزواج بي؟ أنت لم تسألني حتى الآن.

تمتم ڤانس باليونانية شيئاً بدا لها متوتراً جداً، ثم لف ذراعيه حولها يضمها إليه، كان وجهه الأسمر مدفوناً في شعرها الناعم وصوته مخنوقاً في شعرها ولكنها لم تجد صعوبة في سماع ما يقول، فقد قال بحزم وثبات: «بالطبع أريد الزواج بك».

ولم يكن لديها رغبة في مجادلته.

* * *

١٠ ـ الوجه الآخر للحبيب

بعد بضعة أسابيع تزوج ڤانس وشينان، وكان الخريف يطل على الدنيا.. وهذا وقت ذهبي مثمر إذ تكون الشمس أكثر دفئاً والبحر أعمق غوراً.

كانت حفلة الزفاف حدثاً كبيراً وقد دُعي إليها الأهالي الذين أقبلوا يريدون مشاهدة العروسين متمنين لهما الصحة والسعادة وإنجاب أبناء أقوياء.. وهذه أمنية وجدتها إيلانا بدون ريب مريرة، لأنها تنهي أحلامها بالنسبة لابنها الذي تريد أن يرث ثروة أورميروس.

كانت شينان قد أمضت وقتاً طويلاً أمام المرآة في غرفة نومها، تنظر إلى انعكاس صورتها وهي مرتدية ثوبها الأبيض الحريري المسترسل حولها. حاولت أن تتعرف إلى هذه الفتاة على أنها الفتاة نفسها التي نظرت إليها آلاف المرات بغضب وتحد بسبب تدخل ڤانس بحياتها. الآن أصبح ڤانس الشخص الوحيد المهم في دنياها، وسيصبح حياتها كلها ما أن يعلنهما «باتري جورجيو» زوج وزوجة.

عندما شاهدتها السيدة أورميروس بكت قليلاً. كانت تبدو أصغر بكثير من سنواتها التي لا تتجاوز الحادية والعشرين، وأجمل ما كانت يوماً. أما شقيقات ڤانس باستثناء إيلانا فقد علا ضجيجهن حولها، وتبادلن الهزر وكأنهن فتيات صغيرات. ثم قدمن لها الآراء

والنصح ورحن يتذكرن أيام زفافهن.

سارت بنات أخوات ڤانس الصغيرات وبنات القرية خلف العروس حاملات الشموع المربوطة بالشرائط الحريرية، مرتديات أجمل الفساتين. وكانت النساء تنظرن إلى ڤانس أورميروس الطويل الفخور، ويتمتمن أن الإنكليزية الصغيرة محظوظة لزواجها من هذا الرجل.. فهو ليس رجلاً ثرياً فحسب بل رجل قوي رائع يحبها.. والحب أعظم مكافأة لأية عروس.

لاحقت عيون الشبان قدّ العروس الصغير وكانت هذه العيون تحسد سراً العريس، فقد اعترف الجميع أنها اليوم خلابة. كانت عيناها زرقاوين مشعتين عميقتين. وكانت قد سرحت شعرها الكستنائي الحريري وتركته مسترسلاً على كتفيها لأن ڤانس يحبه على هذه الحال.. كان على وجنتيها تألق وردي وعلى ثغرها ارتجاف وترقب.. لن يفسد شيء هذا اليوم عليها، ليس وهي في طريقها لتصبح زوجة ڤانس..

كانت الكنيسة الصغيرة مبنية خلف القرية على تلة مرتفعة. وكانت أبراجها المستديرة، وقممها المستدقة، تتلقى كمية كبيرة من حدة الشمس وحرارتها.

نادراً ما كانت تتاح لباتري جورجيو الفرصة ليرأس قداساً بمثل هذه المناسبة المميزة.. وهذا حدث مهم جداً للقرية كلها.. فما زالت عائلة أورميروس أهم عائلة في قرية بارستيوس، وما كان أحد يتوقع أن يتزوج رب العائلة في قريته.

كان القسيس باتري جورجيو قد ترأس قداس زفاف بنات العائلة، لكن ذلك حدث منذ سنوات، وقد يئس أن يترأس قداس زواج الابن الوحيد في العائلة.

كانت شينان تعرف المراسم عن ظهر قلب.. فقد كررتها أمامها

المدام أورميروس وبناتها في الأسابيع الماضية.. فهي وإن كانت لا تفهم كلمات المراسم تعرف ما يجري وما هو مطلوب منها.. وقفت إلى جانب ڤانس تمسك شمعة أمامها فيما القسيس يبدّل تاجي الزواج. عندما ضمَّ القسيس أيديهما نظرت إلى وجه ڤانس الأسمر القوي.

بدت حدائق ڤيلا إيستشيا صغيرة بطريقة ما بوجود الطاولات المصطفة تحت الأشجار. كان أهالي القرية متحلقين حول الموائد التي اصطف عليها أطعمة متنوعة وعصائر متعددة.. وكان من دواعي غبطتها الكبيرة أن تكتشف أن بسكويت الزفاف التقليدي الذي كانت تقدمه مع ڤانس إلى كل ضيف من ضيوفهم كان على شكل دلفين صغير مطلي بسكر أبيض.

كانت وليمة الزفاف التقليدية صاخبة ومثيرة، ملؤها التصفيق والهتاف. وبدا أن الجميع هناك.. في وقت ما من بعد الظهر، شاهدت باولو..

علمت أنه هناك في مكان ما. فما من أحد يرفض المجيء وتمني السعادة للعروسين.. ولكنها لم تشاهده إلا عندما سارت على الشرفة وهي عائدة إلى الحفلة. كان في بذلة رسمية سوداء فكادت لا تعرفه فهي معتادة على رؤيته بالكنزة والجينز.

كان واضحاً في وقفته قرب إحدى الأشجار التي يكاد جذعها يخفيه أنه كان ينتظر مرورها به. حالما أصبحت على مقربة منه خرج من مخبئه فوقفت شينان مترددة، خافقة القلب، تريد محادثته، ولكنها تتساءل عما إذا كان من الممكن ذلك.

قالت بصوت منخفض قلق: «باولو».

نظر إليها بثبات لحظة: «جئت أتمنى لك السعادة ذيسبيناس».

ـ شكراً لك.. باولو!

شعرت بغصة في حلقها فمدت يدها تلامس ذراعه بأطراف أصابعها وقالت:

- وددت رؤيتك ثانية.. أردت إخبارك بنفسي ولكن...

- كيريوس أورميروس لم يسمح لك.. وأنا ما كنت لأسمح بذلك ذيسبيناس شينان!

سألته: «وهل توقعت هذا الزواج؟ هل عرفت مشاعري تجاه ڤانس»

هز باولو رأسه وابتسامة صغيرة تلوح على شفتيه:

- ربما عرفت هذا قبل أن تعرفيه أنت نفسك.. من ينظر إليك يعرف فوجهك يفضح قلبك.. ذيسبيناس شينان!

كانت الضحكة الصغيرة القلقة التي أطلقتها لا إرادية فهزّت رأسها، وقالت: «هذا ما قاله ڤانس أيضاً».

طافت عيناه السوداوان على وجهها السعيد المتورد بمودة لم يظهرها من قبل.. وقال: «إنه يعرفك نِعْمَ المعرفة».

كان في صوته ما وجدته مثيراً للاضطراب في يوم كهذا.. أدارت رأسها باتجاه الموائد والموسيقى وفكرت في ڤانس الذي ينتظر عودتها إليه.

- عليَّ العودة باولو.. سيسأل عني ڤانس.

- ناي.. سيفتقدك زوجك. ولكنني واثق أنه سيفهم رغبتي في وداعك.. كنا معاً منذ عدة سنوات، ليوإينا.. أليس كذلك؟ كنت صديقتي زمناً طويلاً.

ردت بصوت أجش: «نعم، زمناً طويلاً، سأشتاق إليك باولو».

إنها تعرف لطفه منذ الطفولة، لكنها الآن تأثرت به كثيراً ولهذا اندفعت بعفوية تلثم وجنته.

لم يفعل شيئاً بل وقف ينظر إليها بعينيه السوداوين برهة قبل أن

يبتعد عنها قائلاً بصوت أرجفها:

- هيرتي، ليوإينا، كوني سعيدة يا صغيرتي!

راقبته يتوارى بين الأشجار مبتعداً عن حفلة الزفاف، متجهاً إلى الممر الصخري الذي يقود إلى القرية.

- شينان؟

التفتت بسرعة وعيناها مغرورقتان بالدموع، ويداها مطبقتان على صدرها. كان في تعبير وجهه وهو يتقدم إليها دفء جعل قلبها يصرخ طالباً ذراعيه. مدت يديها وهو يقترب، وقالت:

- كنت عائدة.

ضمها ڤانس بين ذراعيه بحيث استقرّ رأسه على قمة خمارها الأبيض الذي يغطي شعرها. قال وهو يقبل جبينها:

- بالطبع كنت عائدة إلي، إيروس مو، هل ودعت باولو؟

أذهلها قبوله لواقع وجودها مع باولو فنظرت إليه غير قادرة على الرد وعيناها الزرقاوان تبحثان في الوجه المألوف بفضول واستغراب.

- علمت أنني قابلته؟

- عندما شاهدته قادماً إلى هنا. عرفت أنه يبحث عنك.

تحرك قلبها بدفء بسبب لطفه ورقته.

سألت: أليس لديك اعتراض..؟

هز رأسه ببطء:

- لم أقل هذا، ليو إيروس مو، ولكنك بكل تأكيد لا تعتقدين أنني ظالم متسلط إلى درجة منعك من وداع صديق قديم لآخر مرة..

- أنت لست متسلطاً أبداً.. ولم أقل قط إنك متسلط. حبيبي هل قلت ذلك سابقاً؟

ابتسم لها: أعتقد أنك فكرت في ذلك في مرحلة ما.. حبي.. ولن أصدق عكس هذا!

لم تقل شيئاً للحظات بل نظرت إلى وجهه الأسمر القوي بحب كبير، ومدت ذراعيها تعقدهما حول عنقه.. وشدت نفسها إليه طلباً لدفء الرجل الذي أصبح زوجها.

جعلها مجرد التفكير في هذا تصاب بدوار.

فقالت بصوت قلق: «أحبك ولكنني لا أذكر متى لم أحبك!»

نظر ڤانس إليها نظرة طويلة حركت كل المشاعر فيها، ثم جذب البرقع المثبت إلى رأسها بدبوس، ورماه بين الأشجار القريبة.. وشدها إليه ليضمها بين ذراعيه وليدفن وجهه في شعرها.

ـ حبيبتي! (همس لها)

ثم عانقها فحرك فيها تلك الأشواق المتأججة في أعماقها.

كان النسيم الدافىء يتحرك بين الأشجار حاملاً معه صمت حفلة الزفاف. أما بحر إيجة فكانت أمواجه تتكسر على الصخور.. تنهدت شينان، ثم نظرت إلى زوجها الحبيب بينما الدلفين الأبيض يمرح متكاسلاً في الخليج الصغير.

***

www.liilas.com

تمت

doode al 7aloo